جرمينال

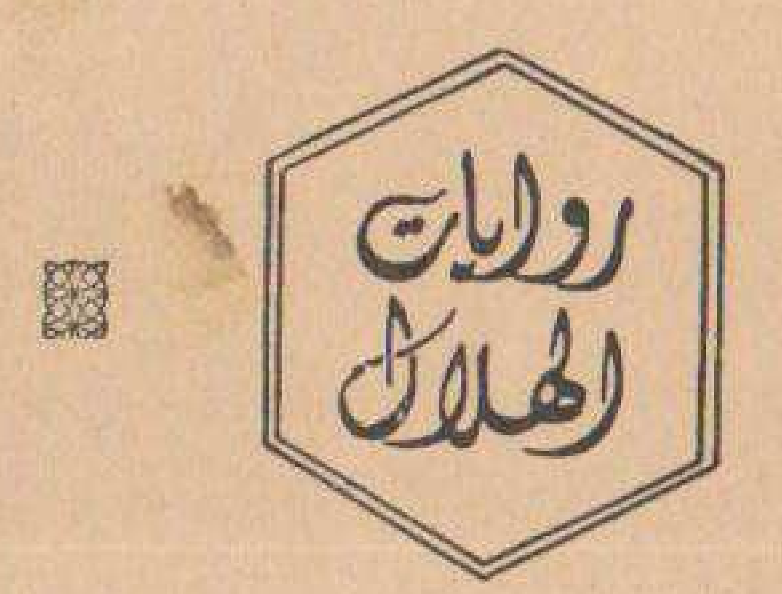
إميل زولا

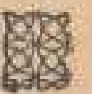


روايات الهلال

روائع القصص العالمي

١٩٦٣/٨/١١





مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العـــدد ١٩٧ * مايو ١٩٦٥ * محرم ١٣٨٥

No. 197 — Mai 1965

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما — عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى — فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا — فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا — فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية — وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة .

سعر البيع للجمهور : قطر والبحـــرين ٣٢ آنة ، ليبيا : بنغازى ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٢٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

الادارة: دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)



بقلم

اميل زولا

ترجمة وتلخيص

سعد مكاوي

تقديم

كان « اميل زولا » فى صميمه جمهوريا معتدلا ، ولم تكن السياسة تعنيه كقاعدة لعمله الأدبى .. لكنه كان انسانا صادقا مع نفسه ، ومؤمنا بأن لكل عصر فنه ، وأن على كل فن جديد أن يغمر جذوره فى تربة عصره ..

و « جرمينال » عمل ادبى جليل يعتبره الكثيرون من النقاد قمة اعمال هذا الكاتب الكبير الذى حرك أعماق عصره ، وكان زعيم مدرسة أدبية كبيرة ، ورائد آفاق جديدة ، والمصور الذى لا يجارى للجماعات فى عصره . ورغم القسوة والمرارة التى تفيض بها صفحاته الغزيرة ، فان عمله الأدبى كله يشهد بأنه الأديب الذى التزم كل ما يلتزمه رجل العلم — وهو يقوم بتجربة معملية — من موضوعية وامانة دقيقة ونزيهة ، كى يقيم دعائم عمل ادبى ثورى ، كما يشهد بانه آمن دائما بمستقبل الانسانية ، ومجد فرحة الحياة وعمل الانسان ، وربط الأدب بقضية المستقبل

ولأول مرة فى تاريخ الأدب ، ومن تصوير كاتب جمهورى لا اشتراكى ، لم يكن « البطل » فى رواية فردا أو أفرادا ، بل كان بطلا جماعيا هو جمهور عمال المنجم ، ولأول مرة ينهض كاتب ليسم بالحديد المحمى مجتمعه الذى يسمح بمثل هذا الظلم ، مما يجعل « جرمينال » التى صور فيها اضراب عمال المناجم فى احد اقاليم فرنسا احتجاجا على مظالم الشركة المستغلة عملا فريدا فى الأدب الفرنسى ، كما أنه فريد فى انتاج « زولا » نفسه

وقدم زولا (١٨٤٠ — ١٩٠٢) لهذا الموضوع الذى لم يعالجه الأدب قبله بقوله : « اردت بروايتى جرمينال ان تكون دراسة بيئة وفى الوقت نفسه تحليلا اجتماعيا ، واريد منها أن تتنبأ بالمستقبل وتثير المسألة التى ستكون اهم مسائل القرن العشرين ... »

واذا كان قد آثر أن يظل محايدا ازاء كل الطبقات الاجتماعية التى يدرسها ويشرحها ويعرضها ، فان عـداءه واضح لـكل المستغلين والجامدين والمتحذلقين والامخاخ الفارغة والقلوب الجافة .. اذا كان يقول : « ليس هدفى أن اقيم او ادافع عن سياسة أو عقيدة ، فانى مجـرد ملاحظ ومحلل ، بغير موعظة .. واذا كان واجب روايتى جرمينال أن يكون لها نتيجة ، فستكون هذه هى النتيجة : قول الحقيقة الانسانية ... والحرية متروكة بعد ذلك لمن يريد استخلاص النتائج من عملى » فلقـد استطاع بمنهجه هـذا وبحبه للانسان وللحرية ، خلال ربع قرن ، يوما بعد يوم ، وطوبة بعد طوبة ، ان يقيم أحد الصروح العملاقة فى الأدب الانسانى ...

لقد تسلم « المنهج العلمى » الذى يدرس كل الناس فى البيئة التى يتحـركون فيهـا دراسة منهجية ، والذى يجعـل مهمـة الروائى « الواقعى » شبيهة بمهمة العالم « الطبيعى » ، اى قائمة على الملاحظة والاستقصاء والتحليل والتصنيف ، تسلم هذا الاتجاه الذى كان قد بدأ يتضح فى عصره ، وطبقه فى رواياته بقوة ذاتيـــة تركت أثرها فى فن الرواية فى العالم ، وكان هو الأديب الذى ميز الملامح النوعية لعصره وفهمها ، وأدرك العناصر الجديدة التى تبزغ للأدباء من معامل العلماء ومن قوانين الانتخاب الطبيعى وحقائق الوراثة والكون كله ، كما آمن بأن القوانين العلمية التى تحـدد مأسـاة الانسان وتفسر أنينه ودمه النـازف تأخذ مكان قدرية القـدماء وقـواعد التراجيديا اليونانية التى تستلهم غضب الآلهة

لقد كف الانسان عن أن يكون لغزا .. لقد مزق العلم كل الحجب ، فليتبعه الادب .. على الكاتب ان يستخدم قلمه كالمبضع ، يرخى العنان لخياله ، بل باحثا ومستقصيا ومبشرا !

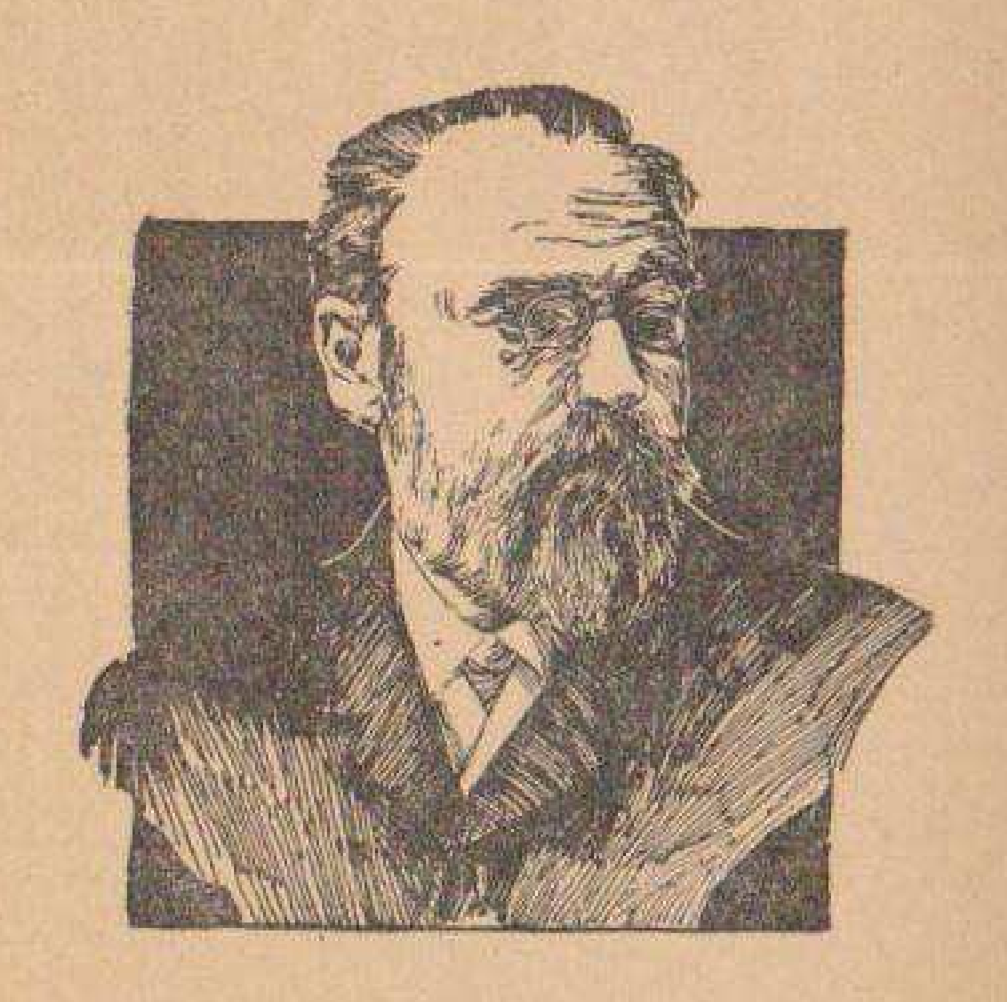
بهذه الروح ، وهذا الفهم ، بدأ « زولا » تفكيره فى عمل أدبى ضخم يسيطر على النصف الثانى من القرن التاسع عشر كله ، يكون الخيط الأساسى فيه هو منطق الوراثة ، أما الاطار فهو مجتمع الامبراطورية الثانية .. وباريس التى سيصفها فى هـذا العمل الـكبير ليست باريس « جان فالجان » بطل رواية « البؤساء » ، فلقد مرت ثلاثون سنة من التطور الصناعى والاجتماعى غيرت الأوضاع والقيم والناس

... فى « البؤساء » ينهض « الانسان » من كبوته بالندم والتكفير الارادى ، ، اما انسان زولا فهو ابن عصره الشاحب الضامر الذى يقوم الكحول فيه بمهمة التسميم والابادة الجماعية ، لأنه انسان الادب الذى يتكلم لغـة العصر ويحترق بحميـاته ويكشف آماله وعذاباته ويقود معاركه ..

وقد ظهر هذا العمل الضخم فى عشرين جزءا بعنوان واحد : « روجون ماكار ـ التاريخ الطبيعى والاجتماعى لأسرة تحت حكم الامبراطورية الثانية » ... وتوالى فى الأجزاء العشرين ظهور نفس الأشـخاص فى حكايات منفصلة لكل منها نهايتها الخـاصة ، لكنها مرتبطة فيما بينها برباط قوى يجعل منها «كلا» واحدا وواسعا ...

و « جرمينال » هى الدرة اللامعة فى هذا العقد الكبير الذى بدأه كاتبه وعمره ثمـان وعشرون سنة ، وانتهى منه فى عـامه الثالث والخمسين ..

سعد مكاوى



— ١ —

فى السهل الأجرد ، تحت سماء بلا نجوم ، فى سواد الحبر وكثافته ، كان رجل وحيد يقطع الطريق الكبير من « مارشيين » الى « مونتسو » ، عشرة كيلو مترات مرصوفة مستقيمة خلال حقول البنجر ، وافق رحب مسطح كنست لسعات رياحه الباردة فى طريقها مستنقعات وأراض عارية .. وما من ظل شجرة ، بل الطريق يمضى مستقيما ، وسط عماية السماء الضبابية المظلمة ..

وكان الرجل قد غادر « مارشيين » فى نحو الساعة الثانية ، وكان يمشى بخطوة واسعة وهو يرتعش تحت سترته وبنطلونه اللذين رق قطنهما ، ضائقا بربطة صغيرة معقودة فى منديل ذى مربعات ، يضغطها بكوعه وهو دافس فى اعماق جيوبه يدين خدرهما البرد وادمتهما سياط الرياح ، وفكرة واحدة تشغل ذهنه ، الأمل فى ان تخف حدة البرد بعد شروق النهار ..

وفى الخلاء ، قبل « مونتسو » بكيلو مترين ، لمح عن شماله ثلاث نيران حمراء تتوقد وكأنها معلقة فى الفضاء ، فتردد مدى لحظة ثم لم يستطع مقاومة الحاجة المؤلمة الى تدفئة يديه ..

وكان عن يمينه سياج .. شبه جدار من الواح ضخمة تقفل سكة حديدية ، وعن شماله مرتقى معشب تعلوه سقوف غامضة فى الضباب ، رؤيا قرية ذات سقوف خفيضة ومتشابهة .. فلما بلغ منعطف طريق عاد فرأى النيران بالقرب منه ، دون أن يفهم سر احتراقها على هذا العلو فى السماء الميتة ، كأنها أقمار مدخنة .. ثم رأى كتلة المبانى يبزغ منها قوام مدخنة مصنع ، واضواء نادرة تخرج من النوافذ المتسخة ، وخمسة أو ستة مصابيح حزينة معلقة فى الليل والدخان كان يرتفع صوت تنفس ضخم من نفثات بخارية لا ترى ...

وفى استحياء العامل المتعطل الذى لا يجد مأوى ، غامر اخيرا بارتقاء المرتفع الذى كانت تتوقد فوقه نيران الفحم الثلاث ، وهناك راى عمالا يدفعون عربات فتتلقاها ظلال حية اخرى فتقلب ما فيها من الفحم بالقرب من النار ...

ودنا من احد المواقد ، وحيا عاملا عجوزا من سائقى العربات كان واقفا فى ثوب من الصوف المشغول وعلى راسه طاقية من جلد الارنب ، بينما ينتظر حصانه الكبير الأصفر — فى جمود حجرى — ان تفرغ العربات الست التى صعد بها ، أما العامل الثانى فكان يعمل فى قلب العربات ببطء يتفق مع نحوله ، فهو يضغط على العتلة بيد نائمة .. وفوق هذا العمل الليلى تعصف الرياح المثلجة ، فيمر لهاثها الضخم المنتظم مثل ضربات المناجل

ورد العجوز التحية وسكت ، وهو ينظر الى الشاب الغريب فى حذر ، فبادر هذا بذكر اسمه :

— اسمى « اتيين لانتييه » ... الا يوجد عمل هنا ؟ ..

واضاءته اللهب فبدا اسمر وجميلا ، فتى فى نحو الحادية والعشرين ، متين البنيان على دقة اعضائه ...

— عمل ؟ .. لا ، لا .. أمس فقط تقدم اثنان آخران .. لا يوجد شىء ! ..

وهزت العجوز نوبة سعال عنيفة خنقته ، ثم بصق فتركت بصقته اثرا اسود على الأرض المتضرجة بلون اللهب ..

وكانت العربات الست قد افرغت ، فتبعها — دون ضربة سوط — وساقاه متيبستان من الروماتيزم ، بينما تحرك الحصان وحده فى عاصف من الريح يقشعر له شعره ..

وتأمل « اتيين » المكان وهو يدفىء يديه الداميتين ، وفكر فى الأيام الثمانية التى مرت عليه وهو يبحث عن عمل ، واستعاد موقفه فى ورشة السكك الحديدية وهو يصفع رئيسه فيطرد ، وخروجه من مدينة « ليل » ووصوله الى « مارشيين » فى يوم السبت حيث لم يجد العمل الذى قيل انه كان مطلوبا فى مصنع الحديد ، ويوم الأحد الذى قضاه مختبئا تحت اخشاب فى فناء ورشة نجارة ، والحارس الذى طرده منها فى قلب الليل ، بلا شىء ، بلا كسرة خبز .. !

وأعلن سعال حاد عودة سائق العربات ، ثم رآه يخرج ببطء من الظلمة ووراءه الحصان الأصفر يجر ست عربات جديدة ، فسأله الشاب :

— هل توجد فبريكات فى مونتسو ؟

وبصق العجوز بصاقه الأسود قبل ان يرد :

— النقص ليس فى « الفبريكات » لكن الحالة سيئة فى البلد ، والناس يطردون ، والمصانع تغلق ابوابها الواحد بعد الآخر .. وبما لم تكن هذه غلطة الامبراطور ، لكن لماذا يذهب ليحارب فى أمريكا ؟ .. هذا اذا لم نذكر ان الماشية تموت مثل الناس من الجوع !

وفى عبارات قصيرة وانفاس متقطعة طاب جو التشاكى ، فروى الشاب ايضا سعيه العقيم منذ اسبوع ، وقال انه يتصور الطرق وقد زحمها المتسولون والناس لا يطلبون غير الخبز .. ثم اختفى صوتاهما فى زوبعة حملت الكلمات فى زئيرها الكئيب ..

وعاد العجوز يقول ان مصنع سكر فوفيل فى مونتسو لا يزال يشتغل ، لكن مصنع سكر هوتون أجرى تخفيضا فى عدد موظفيه ، ثم بصق وتحرك وراء حصانه النعسان ..

وعندما ظهر مرة أخرى عاد الى الثرثرة :

— انا من مونتسو واسمى « بون مور » (الموت الطيب !) .. انتشلونى ثلاث مرات من قاع المنجم ورأوا انى لا اريد ان اموت فدعونى « الموت الطيب » على سبيل الضحك !

كانت النار الآن تضىء شعره الأبيض النادر فى راسه الضخم ووجهه الساكن الشاحب الأغبر ، المبرقش ببقع مزرقة ..

كان ضئيلا .. عنقه كبير ، وذراعاه طويلتان ، تسقط منهما يداه الى مستوى ركبتيه ..

ومثل حصانه الذى يظل فى وقفته جامدا دون ان يبدو عليه انه يعانى من الرياح المعولة ، كان الرجل يبدو من حجر لا يمسه البرد ولا الزوابع المصفرة فى اذنيه ...

— هل تشتغل فى المنجم منذ وقت بعيد ؟

— آه ! نعم ! ... لم أكن بلغت الثامنة عندما نزلت فى المنجم ، وعمرى ثمان وخمسون سنة فى هذه الساعة ، لقد زاولت كل صنوف العمل تحت الأرض حتى شكوت من ساقى ، وقال طبيب

الشركة منذ خمس سنوات انى لم اعد اصلح للعمل « تحت » ومن يومها اسوق هذه العربات هنا ... ويقولون لى : استرح ، وانا لا اريد ان اعتزل قبل ان ابلغ الستين ، فتنال معاش المائة والثمانين فرنكا ، فانهم اذا تقاعدت اليوم يعطوننى فى الحال معاش المائة والخمسين فرنكا .. هم مكارون .. ثم انى متين ، فيما عدا الساقين .. انه الماء الذى رشح تحت جلدى من طول ما اشتغلت « تحت » ... هناك ايام لا استطيع فيها تحريك قدمى دون أن اصرخ .. !

وقطعت كلامه نوبة سعال جديدة ، وسأله الشاب :

— وهذا يجعلك تسعل هكذا ؟ ..

فجاء الرد حركة بالراس عنيفة فى تعبيرها عن النفى ، قبل أن يقوى على الكلام :

— لا .. لا .. كان فى البداية زكاما ، لكن العجيب هو انى أبصق فحما .. مع أنى من خمس سنين لم أضع قدمى « تحت » فان عندى من الفحم فى هيكلى ما يدفئنى الى آخر ايامى !

وصحت ذكرياته فتكلم عن اسرته التى تشتغل كلها فى شركة مناجم مونتسو منذ ١٠٦ سنة ، الصغار بعد الكبار ، لصاحب العمل نفسه ... والشركة غنية وعندها ملايين ، ولم يعد احد يحصى غناها ! .. انها تضم تسعة عشر منجما وعشرة آلاف عامل ، وتستخرج كل يوم خمسة الاف طن من الفحم ، وتملك سكة حديدية تربط جميع المناجم وورشا عديدة ... والمدير العام هو السيد « هينبو » ..

— هذا موظف ، لكن لمن كل هذا ؟

— لمن كل هذا ؟ .. لا يدرى أحد ! ... انه لناس ! ...

واكتسى صوته وهو يقول هذا بمسحة من خوف دينى الطابع ، كما لو كان قد تكلم عن محراب عزيز المنال يستتر فيه الاله المتخم الذى صلت له اسرته اكثر من قرن ، وقدموا القرابين من لحومهم دون ان يكونوا قد رأوه مرة ! ..

وتحرك الحصان فاختفى العجوز وراءه ، وظل العامل الثانى متكوما امام النار وذقنه مدفونة بين ركبتيه ، محدقا بعينيه الكبيرتين المطفأتين فى الفراغ ..

ولا فجر يشق بياضه السماء الميتة ، وليس هناك الا منجم « فورو » هذا الرابض كالحيوان الشرس النهم ليفترس العالم ، وهو يتنفس لاهثا فى هضمه لما يأكله من اللحم البشرى ...

- ٢ -

فى وسط حقول القمح والبنجر كانت المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال تنام تحت ليلها الاسود ، كتل أربع كبيرة من بيوت صغيرة متساندة ، هندسية ومتوازية ، كأنها ثكنة أو مستشفى ، تفصلها الشوارع الثلاثة العريضة المقسمة الى حدائق متساوية

وفى بيت العامل « ماهوى » فى رقم ١٦ من الكتلة الثانية ، لم يكن يتحرك شىء قبل أن تدق ساعة الحائط فى الطابق الاول أربع دقات ، فكل من فى البيت كان منسحقا من التعب ونائما وفمـــه مفتوح ..

لكن « كاترين » كانت بحكم العادة أول من تنبه من خلال السقف الى الدقات الاربع ، فجلست فى مرقدها وأوقدت شـــمعة نشرت ضوءها فى حجرة مربعة تملؤها أسرة ودولاب ، ومنضدة وكرسيان، وملابس معلقة فى مسامير ، وجرة موضوعة فوق البلاط بالقرب من حوض فخارى أحمر للاغتسال .. وفى السرير الايسر « زخارى » ابن الاسرة البكر ، وهو شاب فى الحادية والعشرين ، وأخوه الصغير « جانلان » الذى يتم عامه الحادى عشر .. وفى السرير الايمن طفلان هما « لينور » فى سنتها السادسة و « هنرى » فى سنته الرابعة ، وهما ينامان أحدهما فى ذراعى الآخر .. بينما كانت « كاترين » تقتسم السرير الثالث مع أختها « الزير » الهزيلة بالنسبة لاعوامها التسعة ، ذات الحدبة فى ظهرها .. ومن باب الحجرة المفتوح كان يتبدى صحن السلم والملحق الذى يشــغله الاب والام بسريرهما الرابع ، ويلصقان به مهد آخر ذريتهما « استيل » التى لم تكد تبلغ ثلاثة أشهر ..

وكانت « كاترين » فى عامها الخامس عشر ، لكنها ظلت تتمطى فى اعياء وهى جالسة فى فراشها حتى وصلتها من بسطة السلم همهمة أبيها التى ترميها بالكسل ، فمشت بقميصها حـــافية القدمين فى

الحجرة ، وعندما مرت أمام سرير الصغيرين ردت الغطاء فوقهما ، على حين كانت « الزير » الحدباء تستدير وهى مفتوحة العينين لتأخذ المكان الدافىء الذى تركته اختها الكبرى .. وأمسكت « كاترين » أخاها الكبير « زخارى » من كتفه وهزته وكشفت الغطاء وهى تضحك من ولدين يتخبطان ويلوكان الشتائم وسيقانهما عارية .. وجلس « زخارى » النحيل وفى وجهه الطويل طابع الاسرة كلها من الشحوب الابيض ، اما « جانلان » فقد وثب وعضها فى ثديها الايمن ، فحبست الصرخة وشتمت الولد وهى تضعه على الارض ..

وعند حوض الاغتســـال انفجر شجار آخر بين الاخت وأخويها ، وطارت قمصان النوم بلا حياء ، وبالسهولة المطمئنة لقطيع من كلاب صغيرة نشأت معا ....

ومثــل أخــويها لبست « كاترين » بنطلون عامل المنجم وسترته وصارت لها هيئة رجـل صغير ، ولم يتبق لها شىء من جنســـها غير ليختر الردفين الخفيف .. وذكروا جدهم « الموت الطيب » الذى يعمل بالليل وينام بالنهار ، ولم يكن يبرد سريره ، اذ كان فيه دائما مـن يرتفع شخيره !

ومن وراء الحائط وصلت ضجة ، فلقد قضى تقتير الشركة أن تكون الجدران بين هذه المساكن رقيقة تخترقها الهمسات ، فكانوا يعيشون من طرف المساكن الى طرفها الآخــر والكوع فى الكوع ، فلا شىء من الحياة الخاصة كان يظل مستورا ، حتى عن الاطفال ....

وقالت البنت عندما سمعت تلك الضجة وراء جدار الجار :

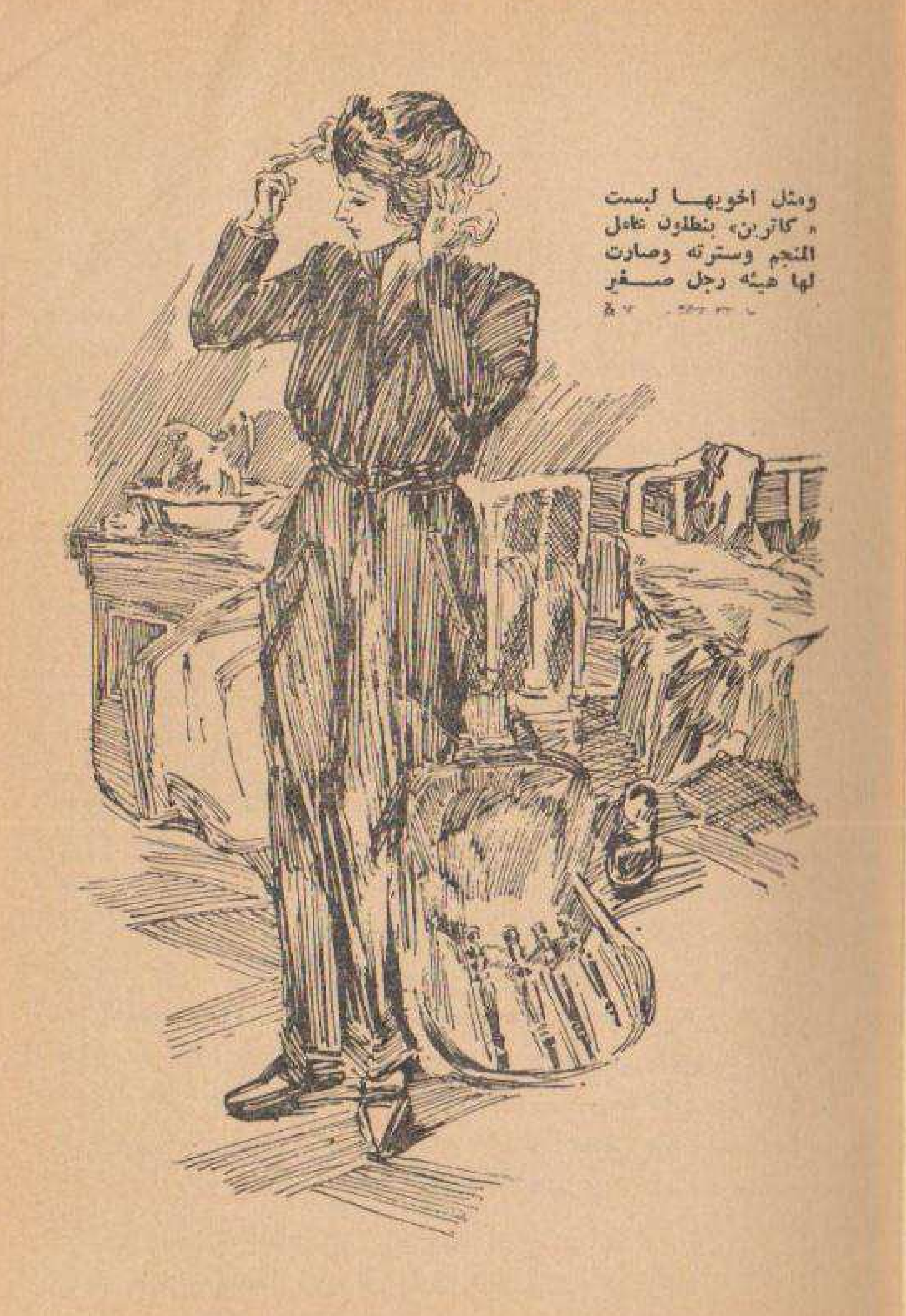
ـ هذا « ليفاك » ينزل ، فـلا يلبث « بوتلو » أن يذهب الى مـدام « ليفاك » !

كل صباح كانوا يتسلون هكذا بالثالوث ، الزوج والزوجة والعامل الآخر الذى يسكن عندهما ، والذى يشتغل ليلا ويملأ البيت نهـارا ، عندما يكون الزوج فى العمل ....

وعادت « كاترين » تقول :

ـ هذه « فيلومين » تسعل !

وكانت فى هذه المرة تتكلم عن ابنـة « ليفاك » الكبرى التى لم تتم التاسعة عشرة حتى كانت قد صارت عشيقة « زخارى » ولها منه حتى الآن ولد وبنت ، وهى ضعيفة الرئتين .... والناس كلهم يعرفون !



ومثل اخويها لبست « كاترين » بنطلون عامل المنجم وسترته وصارت لها هيئة رجل صغير

صحت الاسرة كلها الا الام لم تبرح فراشها ، ولم يكن يبدو منها من تحت الغطاء غير وجه مستطيل بملامح كبيرة وجمال ثقيل غيرته تسع وثلاثون سنة من حياة البؤس ، وسبع ولادات ..

ونزل الاب « ماهوى » وولداه « زخارى » و « جانلان » فوجدا « كاترين » منشغلة باحياء النار فى الموقد الحديدى ، وكانت نفاية الفحم الصلب التى توزعها الشركة تشتعل بصعوبة فى صالة واسعة تشغل الطابق الارضى كله ، بها بوفيه ومائدة وكراسى وعلى جدرانها صورة الامبراطور والامبراطورة ـ وهى أيضا معطاة من الشركة ـ وصور جنود وقديسين ، والساعة ، وهناك باب آخر بالقرب من باب السلم يفضى الى القبو ، ورائحة بصل مطبوخ محتبسة تسمم الهواء الراكد المثقل برائحة الفحم ..

واستطاعت البنت بقطعة من الخبز وجبن أبيض وقليل من الزبد أن تعد الشطائر الاربع التى يحملونها معهم الى المنجم لتكون «تصبيرة» الساعة العاشرة ، وقد أعدتها بعدالة متزمتة ، من الشطيرة الكبيرة الخاصة بالاب الى الصغيرة الخاصة بالولد « جانلان » .... وفى عجلة ابتلع الاربعة قدرا من الحساء بعد أن تركت البنت فوق زاوية الموقد نصيب الجد ، حتى يجده عند عودته فى الساعة السادسة ساخنا ..

وتناول كل منهم بعد ذلك حذاءه الخشبى من تحت البوفيه ، وأدخل فتلة الزمزمية فى كتفه ، ثم حمل « التصبيرة » فى ظهره بين القميص والسترة ....

وخرجوا ، الرجال أولا ، ثم البنت ، لتطفىء الشمعة وتدير المفتاح فى الباب ..

وكانت الابواب فى محلة العمل قد فتحت وتدفقت منها فى الليل خيوط سوداء من العمال ، وبرز من البيت المجاور « ليفاك » من ابنه « ببير » وهو صبى فى الثانية عشرة ، وصديق كبير ل « جانلان » ....

وانطفات الانوار وعاد الى النوم كل شيء فى البيوت ، النساء والاطفال ، فى سرر صارت الان اوسع ....

ومن القرية الى المنجم انطلق تحت الزوابع موكب بطيء من ظلال ترتعش من البرد وتتراخى على طول الطريق فى خطى قطيع ..

- ٣ -

— أليسوا هنا فى حاجة الى عامل ، لاى نوع من العمل ؟

كان العمال عند هذا السؤال يهزون رءوسهم ويطلبون من «اتيين» أن ينتظر قدوم « الاسطى دانسايير » ٠٠٠٠ وكانت أربعة مصابيح قوية مثبتة عند مدخل المنجم تلقى نورها كله على الآبار والروافع وأقفاص النزول الى الاعماق ٠٠ أما سائر البهو الفسيح كأنه صحن كنيسة ، فكانت تتحرك فيه ظلال الرجال وعربات لا تهدأ حركتها فوق القضبان وآلة ضخمة فى صالة عليا وراء البئر ، جالسة فى شموخ فوق قاعدتها المبنية ، مبرقة بفولاذها ونحاسها ، هادرة بقوة أربعمائة حصان ، وقد وقف العامل الذى يخدمها مصغيا الى رنين الاشارات ، دون أن يرفع بصره عن اللوحة الموضحة لسير العمل ، حيث كانت البئر بطبقاته المختلفة ممثلا بخط رأسى تقطعه قطع من الرصاص معلقة فى خيوط ، ترمز الى الاقفاص ٠٠

وكلما هبط قفص بحمولته من العمال الى بطن الارض دارت البكرتان الضخمتان اللتان يلف حولهما السلكان الفولاذيان فى الاتجاه العكسى بسرعة مذهلة ، فتغوص الاقفاص وتعود فارغة ومليئة، والآبار تبتلع الرجال على لقمات من عشرين أو ثلاثين ، والقفص الحديدى يصعد كل حين من الظلمة ، بهدوء حيوان ليلى ، بطوابقه الاربعة التى يحتوى كل منها عربتين مليئتين بالفحم ، ويخرج منه عمال ليدخله آخرون ٠٠ وكان العمال اذا دخلوا فى العربات الفارغة ينحشرون فيها ثم يصدر الامر من مكبر الصوت ، فيرتفع نعير أصم ، ويهتز حبل الاشارة أربع مرات لاخطار العالم التحتى بهذه الحمولة الجديدة من اللحم البشرى ، ثم ينتفض القفص ويغوص فى صمت ، ساقطا مثل الحجر ٠٠

وسأل « اتيين » عاملا كان ينتظر بالقرب منه فى نعاس :

— هل هو عميق ؟ ٠٠

— ٥٥٤ مترا ، ولكن هناك أربع مصاطب تقع الاولى منها على عمق ٣٢٠ مترا ٠٠

فاندفع « اتيين » خارجا فى خوف مبهم ، فلقيته عند مبنى المراجل المستعرة جماعة أخرى من العمال مقبلة على المنجم ، مكونة من أسرتى « ماهوى » و « ليفاك » ٠٠٠٠ وعندما لمح « كاترين » بهيئتها الغلامية الهادئة التى لا تشى بجنسها ، سألها :

— قل لى يا زميل ، أليسوا فى حاجة هنا الى أى عامل ، لاى عمل؟٠٠

نظرت اليه مندهشة ، لكن أباها تكلم عنها فى شىء من العطف على هذا العامل المتعطل الباحث عن أى عمل ٠٠ لا ، ليسوا فى حاجة الى أحد ٠٠ الاحوال صعبة ٠٠ وانتهى الحديث القصير عندما تكاثر العمال حول البنت « موكيت » بنت الثامنة عشرة التى تتفجر سترتها بصدرها وبنطلونها بعجزها ، وكانوا كما جرت العادة معها يداعبونها بخشونة مألوفة ، فهى معروفة بأنها تنعم بوصال أى محب ، وكل المنجم مر بها ، وسط حقول القمح فى الصيف أو لصق حائط فى الشتاء ٠٠ !

لكن المرح تلاشى عندما عرف « ماهوى » أن زميلتهم فى العمل « فلورانس » لن تأتى ، لانهم وجدوها على سريرها متخشبة ٠٠ وكانت « فلورانس » زميلة « كاترين » فى العمل ضمن فريق « ماهوى » الذى يضم أيضا « زخارى » و « ليفاك » وعاملا آخر اسمه « شافال » ، فصاح « ماهوى » فجأة طالبا من « كاترين » أن تأتيه بذلك الشاب المتعطل المتسكع أمام مبنى المراجل ٠٠ على حين اندفعت موجة من العمال خارجة من البئر ، وتأهب الجدد للنزول وفيهم الغلامان الصديقان « جانلان » و « بيبر » وبنت ناحلة اسمها « ليدى » فى سنتها العاشرة ، وأمامهم «موكيت» السمينة تصرخ فى السلم المظلم وتتوعد « الاطفال القذرين » بالصفع اذا هم قرصوها ٠٠ !

ولحقت « كاترين » بالشاب الغريب عند المراجل وضحكت عندما فهمت من رده الشاكر عليها أنه لا يزال يحسبها ولدا ، وعادت به الى أبيها الذى حصل له على اذن التشغيل ، مقابل فرنك ونصف فى اليوم ٠٠٠٠ وأعطوه غطاء جديدا للرأس وجاروف « فلورانس » الراحلة

ومصباحا ، ثم لم يلبث أن هوى به القفص مع الآخرين فى تلك الظلمة الفاغرة ..

ها هى ذى الاعماق السوداء ، وها هو ذا فى القفص مع الاخرين يمر بطبقات المنجم مرور الريح الخاطفة ، فلا يرى منها الا خطفات سريعة تكشف له كهوفا يضطرب فيها رجال مثله ، ثم فى الحال يعود السقوط السريع ..

وأخيرا توقف القفص فى قعر المنجم على مسافة ٥٥٤ مترا من سطح الارض ، بعد أن استغرق هذا النزول دقيقة واحدة ! ..

ومع زملائه الجدد دخل قاعة منحوتة فى الصخر تنيرها ثلاثة مصابيح ضخمة وفيها عمال يدفعون عربات مفعمة بالفحم المقطوع من صلب الارض ، خارجة من أربعة سراديب فاغرة أفواهها ..

وانفصل العمال الهابطون الى جماعات ودخلت كل جماعة الىأعماق خرق من هذه الخروق السوداء ..

وهنا علم العامل الجديد ان امام جماعته مسيرة كيلومترين قبل أن يبلغوا عملهم فى بطن السرداب ....

وبلا كلمة ، وعلى ضوء المصابيح الصغيرة فى الايدى ، ذهبوا الواحد بعد الآخر لتتلقاهم من أعماق السرداب كل حين زمجرة آتية من بعيد كأنها زوبعة مقبلة من أعماق الارض ، ثم يثقب الظلمة ضوء يجعلهم يلتصقون بالجدار متريثين حتى يمر حصان يجر قطارا من العربات..

وفوق العربة الاولى كان الصبى « بيبر » جالسا بينما كان صاحبه « جانلان » يجرى حافى القدمين وقبضتاه معتمدتان على حافة العربة الاخيرة .. وصارت مفارق الطرق غير مستوية ولا أمينة ، حتى بلغوا « العرق » الذى فيه عملهم ، وهنالك كان السقف خفيضا يضطرهم أن ينكسروا تحته نصفين ، والماء فى الارض فوق كعوبهم .. !

كان اسم هذه المنطقة « جحيم المنجم » ، وكان قد سبقهم اليها زميلهم « شافال » وهو طويل نحيل قوى الملامح فى عامه الخامس والعشرين ، فسأل بازدراء عندما رأى الزميل الجديد :

ـ ما هذا ؟ ..

وعندما روى له « ماهوى » الحكاية كان رده من بين أسنانه :

ـ اذن فالصبيان يأكلون خبز البنات !

وتبادل الشابان نظرة مشتعلة بذلك الحقد الغريزى الذى يتوقد فجأة ، لكن العمل بدأ فى الحال وانطلقت هذه الحشرات الآدمية تقرض الارض .....

ومن ضيق المكان التصق « اتيين » بزميلته وهما يتحركان ، فهمس فى ذهول :

ـ أنت اذن بنت ؟ ..

فاجابته « كاترين » فى مرح :

ـ حقا ! كيف عرفت هذا ؟!

كان عملهما ـ هو وهى ـ مقصور على حشو العربات و دفعها ، اما الاربعة الآخرون فقد تمددوا بطول عرق الفحم بين السقف وجدار السرداب ، بحيث لا يملكون التحرك الا بدفعات من الكوع والركبة ، راقدين على جنوبهم ، وأعناقهم ملتوية وأذرعهم مرفوعة وفى كل يد معول قصير النصل ....

وكان الفحم الذى تقطعه معاولهم يتهاوى على بطونهم ومن خلال أفخاذهم ، فى جو من الحرارة والرطوبة ولهاث الصدور وهمهمة التعب المضنى ..

وكلهم صاروا سودا تحت تراب الفحم الناعم الذى يذوب فى عروقهم ..

وعلمت البنت الولد كيف يستخدم جاروفه ليملأ عربته ، بضربات صغيرة موزونة من الجاروف ، منتظمة وسريعة ، ثم كيف يدفع العربة المليئة ستين مترا ، بكل عضلات جسمه .. وتبعها وهو يحاول أن يقلدها فى مشيتها على أربع ، كحيوانات السيرك القزمة ....

وفى الساعة العاشرة راحة قصيرة لتناول « التصبيرة » فنزلوا من جحورهم وأقعوا ـ الكوعان فى الجنبين والاليتان على الكعبين ـ فى ذلك الوضع المعتاد لعمال المناجم ، الذى يحتفظون به حتى خارج المنجم .. لكن « كاترين » ظلت واقفة بالقرب من الزميل الجديد الذى كان قد تمدد بعرض القضبان مكدودا ، وظهره فوق القضيب ، وسألته وفمها ملء وطعامها فى يدها :

ـ الا تشاركنى ؟ ..

ولم يثنها قوله أنه ليس جائعا ، فاستمرت فى مرح :

- انى لم اقضم الا من هذه الناحية فقط ! ..

وقسمت لقمتها نصفين واعطته نصيبه ثم رقدت الى جانبه باطمئنان ، على بطنها ، وذقنها فى احدى يديها وهى تاكل بالاخرى فى أناة ، ومصباحاهما بينهما ، ثم ابتسمت وقالت وهى تتأمل صاحبها :

- لماذا طردوك من سكتك الحديدية ؟

- لانى صفعت رئيسى ..

ثم أردف مفسرا :

- يجب أن أقول انى كنت ثملا ، وانى عندما اشرب أصير مجنونا واحس الحاجة الى ان آكل رجلا ، ثم بعد ذلك اظل يومين مريضا ..!

- ينبغى اذن الا تشرب ... أين تعيش امك ؟

- غسالة فى باريس ...

وذكر اهله السكيرين وأمه التعسة وطفولته الشقية ، لكن زميلته سالته وهى ترفع سداد زمزميتها :

- أتريد أن تشرب قهوة ؟ ..

ولم تعبا برفضه ، بل نهضت على ركبتيها ومدت له زمزميتها فرآها قريبة منه كل القرب فى نور المصباحين ، ووجد لها الآن وهى تحت تراب الفحم الناعم فتنة فريدة .. وسألها عن عمرها فغضبت عندما توقع ان تكون بنت اربع عشرة سنة .. انها فى الخامسة عشرة ، ولكن البنات هنا بطيئات النمو .. وراحت تقول له كل شيء .. دون قحة ولا حياء . وكانت لا تجهل شيئا عن الرجال والنساء ، تلك الطفلة العذراء .. قصت عليه حكايات فظيعة عن « موكيت » السهلة ، بصوت هادىء مرح .. فسالها ان كان لها هى ايضا عاشق ، فأخذت تداعبه قائلة انها لا تريد أن تعصى امها ، وان كان ذلك سيحدث حتما فى يوم من الايام ، ذلك أن فى الوسع دائما العثور على عشاق عندما يعيش الجميع معا ، أليس كذلك ؟ .. ثم ان هذا لا يضر احدا ، وما من احد يقول شيئا ..

وفجاة ظهر « شافال » مندفعا نحو « كاترين » فتناولها من كتفيها وقلب راسها وهى جالسة وسحق فمها تحت قبلة عنيفة ، وفعل ذلك فى هدوء وعدم اكتراث بوجود الشاب الآخر ..

كان فى هذه القبلة استيلاء غيور على مركز خاص بالنسبة للبنت ، لكنها صرخت فيه أن يتركها ، فذهب عنها دون أن يقول كلمة ..

واندفعت هى تؤكد انها لم تكذب وان « شافال » هذا ليس عشيقها ، وكانت فترة الراحة قد انتهت فانقض الجميع من جديد على العمل ، خاضعين لفكرة ثابتة هى أن يتموا شحن أكبر عدد من العربات ، فالاجر يدفع بالعربة ..

ولم يلبثوا كلهم أن أخذهم العمل فى جذبته المستغرقة ، فما عادوا يحسون الماء الذى يرشح تحت جلودهم ويورم أعضاءهم ، ولا التقلصات العضلية الناشئة عن اوضاع العمل المغتصبة ، ولا الظلمة الخانقة التى تخلو فيها رئاتهم من الانفاس وهم يدقون ويدقون ... وكانهم سيظلون يدقون فى الاعماق الى الابد !



ـ ٤ ـ

كان يطيب لهؤلاء المتصببين عرقا فى اقبية الصمت السوداء ان يهاجموا كبار الرؤساء فى الشركة ، لكن « ماهوى » كان يقلق ويتلفت حواليه وهو يوصى زملاءه بالحذر ، فحتى فى هذه الاعماق السحيقة كانوا يخشون « الاذان » ، كما لو كان فحم الساهمين ، وهو مايزال فى العرق الدفين تحت الارض ، له آذان تسترق السمع !

وكانوا فى ذلك اليوم يتهامسون بعلاقة « الاسطى دانساير » بزوجة العامل « بييرون » عندما غضب « ماهوى » وقد غشيه الخوف :

ـ من اراد ان يصيبه اذى فلينتظر حتى يكون وحده !

وجاء من الممر العلوى وقع خطى ، ثم ظهر المهندس « نيجرل » الذى يدعوه العمال فيما بينهم « نيجرل الصغير » ومعه « دانساير » فغمغم « ماهوى » :

ـ اما كنت أقول لكم ! .. انهم دائما يطلعون من تحت الارض !

وكان المهندس « بول نيجرل » شابا فى السادسة والعشرين ، وابن أخ للمدير « هينبو » ، وكان فى عينيه الحادتين ذكاء مستريب يتحول الى سلطة قارصة فى علاقاته مع العمال ، وكان لابسا مثلهم ، ومثلهم كان مغطى بتراب الفحم .. وهو يبدى فى العادة شجاعة من لا يهمه أن تتكسر عظامه ، ويقتحم الاماكن الوعرة ، بل كان ـ حتى يلزم العمال احترامه ـ سباقا الى مواطن الخطر عندما يحدث انهيار أو التهاب غازى ... أما « دانساير » فكان بلجيكيا غليظ الوجه وله أنف كبير شهوانى ...

وتساءل المهندس عن العامل الجديد الذى بدا عمله اليوم ورفع مصباحه وتأمل « اتيين » دون ان يكلمه ..

واخيرا قال مخاطبا رئيس العمل :

ـ لا احب ان نلتقط المجهولين من الطريق ، فلا تعد لمثلها !

واخذ يدرس السقف والعوارض الخشبية التى يصنعها العمال لدعمه ، وصاح فجأة :

ـ بهذا السقف لن تخرجوا من هنا احياء !

فرد « ماهوى » بهدوء :

ـ السقف متين ! ..

ـ بل هو فى حاجة الى مضاعفة دعاماته ، وفى الحال ! ... ضاعفوا الخشب ، أتسمعون ؟

وتهيج امام العمال الذين كانوا يناقشونه قائلين انهم مطمئنون الى سلامتهم ..

ـ عندما تتحطم رءوسكم ، فهل انتم الذين تتحملون النتائج ؟ ... بالمرة ! ... الشركة هى التى سيكون عليها أن تدفع تعويضات لكم ولنسائكم ! ... اكرر لكم اننا نعرف حقيقتكم ! ... انكم من اجل الحصول على زيادة عربتين فى آخر النهار مستعدون للمخاطرة بحياتكم ! ...

كبت « ماهوى » الغضب الذى كان يتعاظم فى نفسه وقال مرة اخرى برزانة :

ـ لو كانوا يدفعون لنا كفاية لكان دعمنا للسقف أحسن !

هز المهندس كتفيه وختم كلامه :

ـ انذركم بأن مجموعتكم عليها غرامة ثلاثة فرنكات !

وثارت نفس « اتيين » وفار دمه ... أمن الممكن ان يقتل الانسان نفسه فى مثل هذا العمل الفظ وفى هذا الجحيم المميت ، ثم لا يكسب حتى الثمن الزهيد لخبزه اليومى ؟

ومر الوقت ، وانتهت المجموعة من تثبيت الدعامات الجديدة ، ثم انطلقوا حاملين ادواتهم فى طريق العودة الى سطح الارض ..

ومشت « كاترين » امام « اتيين » وهى تتلفت نحوه وكأنها تدعوه أن يخرج من جموده ويكون لطيفا ويضاحكها ، فما كذبت عليه وماهى بعشيقة الشاب الآخر .. وكان يزداد ارتعاشهم كلما اقتربوا من المدخل ، حتى بلغوا البهو الذى يشكل القاعدة السفلى لقفص الصعود وهم غارقون فى عرقهم فى تيار الهواء المثلج ...

وهناك كان عمال « الوردية » الاولى يتجمعون ، الرجال والنساء

والاطفال ، ثم ظهر الولدان « ببير » و « جانلان » مع قطار يجر عرباته حصان أبيض مرتعد على أرجله الشائخة ، فلاطفته « كاترين » وهى تكلم عنه زميلها الجديد .. انه الحصان « معركة » عميد المنجم الذى اشتغل فى هذه الاعماق عشر سنين ، وشغل فى الاسطبل الكبير المحفور تحت الارض نفس المكان ، وقام بنفس العمل طوال تلك المدة علـــى طول الممرات السوداء دون ان يرى ضوء النهار مرة واحدة ..

وكان مظهر الحصان يدل على انه يقضى هناك فى العالم الســـفلى حياة حكيمة مذعنة لا تكاد تذكر الشمس ولا الطاحونة التى ولد فيها وسط الخضرة اليانعة ..

وظل العمال يتكومون عند باب القفص حتى اقبل المهندس والاسطى عائدين من التفتيش .. وعادة النظام جعلت العمال يصطفون ، بينمـــا يخترقهم المهندس بلا كلمة !

ودخل المهندس والاسطى الى القفص ، وشد الحبل خمس مرات ، اشارة الى أن « اللحم » الطالع من النوع « الكبير » كما كان يقال عن الرؤساء ، وانطلق القفص وسط صمت عابس صاعدا فى خفة ...

وفى القفص الذى كان يعيده الى الدنيا كان « اتيين » قد قـــرر استئناف زحفه الجائع التائه ، فأولى له أن يموت فى الحال من أن يعاود النزول الى قاع ذلك الجحيم الذى لا يكسب من يتزله قوته .. وأولى له ان يذهب قبل أن يخنق هنا احد الرؤساء !

وعند تلقاهم النور أعشى كالعادة ابصــــارهم ، ودعا « زخارى » صديقه « موكيه » شقيق البنت « موكيت » الى الســـهرة معه فى « البركان » ملهى بلدة مونتسو ، ثم ظهرت اخته فناولها لطمة علـــى خاصرتها تعبيرا عن الحنان الاخوى .. ! لكن « شافال » كان قد عاد ثائرا من دراسة لوحة الاجور فى مكتب الصراف ، حيث علم أنهم خصموا من جهد الفرقة أجر عربتين ، بزعم ان الاولى لم تعبأ بالكمية النظامية والثانية لم يكن فحمها نظيفا .. وصاح « شافال » وهو يوجه نحـــو « اتيين » نظرة تكمل فكرته :

ـ هذه نتيجة انضمام الكسالى الذين يستخدمون اذرعهم كمـــا يستخدم الخنزير ذيله !

وعدل « اتيين » عن الرد بقبضته ، مادام راحلا عن المكان ومن فيه

وقال « ماهوى » ليصنع السلام :

ـ لا يمكن لاحد أن يحسن العمل فى اليوم الاول ، وغدا يكون عمله احسن ..

وكانت « موكيت » فى هدوء مطمئن قد انزلت بنطلونهـــا لتجفف قميصها فأحاط بها هذر الغلمان ، وانفجر الضحك عندما عرضـــت عليهم فجأة تعبيرها الاقصى عن الازدراء .. عجيزتهـــا .. وكانت « كاترين » خلال ذلك تكلم اباها بصوت خفيض وتنتزع موافقته على وجهة نظرها ، فنادى « اتيين » وقال له :

ـ اسمع .. اذا لم يكن معك نقود فقد يسعنى أن احصل لك على قرض من أية جهة ، أم تريد ان تموت قبل ان يحل موعد صرف الاجور نصف الشهرى ؟

فوقع الشاب فى حيرة ، فقد كان فى عزمه ان يطالب بأجر يومـــه الهزيل ويرحل ، اما الآن فقد غلبه الحياء امام البنت التى تحدق فيه وسكت وهو يتمنى الا يكون هناك قرض آخر الامر .. وعندما رأت البنت سكوته ضحكت فى سرور وشملته بنظرة صداقة سعيدة ...

وتحركت جماعتهم الصغيرة فى طريق العودة ، فالتقوا بعمـــال « وردية » الساعة الثالثة فى طريقهم الى القطاع ، فالمنجم لا يكف عن اكل الرجال ، وفى الليل والنهار تحفر فى صخوره الحشرات الادمية ، على عمق مئات الامتار تحت حقول البنجر ...

وكان الاولاد يمشون فى الطليعة ، فلما بلغ الكبار خمارة « الافتتاح » توقف « ماهوى » و « ليفاك » وقال الاول للشاب الحديث العهـــد بحياتهم :

ـ ادخل معنا ! ..

ودخل الرجال الثلاثة الخمارة ، وانطلق الآخرون على الطـــريق الصاعد الى مجموعة البيوت

— ٥ —

خمارة « الافتتاح » تتوسط الطريق بين المساكن والمنجم ، وهى بيت من دورين مبنى بقوالب الطوب ومبيض بالجير ، وحول نوافذه براويز باللون الازرق السماوى ، وعلى لافتة مربعة مسمرة فوق الباب ، بحروف صفراء :

« الافتتاح — حانة يديرها راسنير »

وكان المكان صالة صغيرة ساطعة العرى ، جدرانها بيضاء ، وليس فيها غير ثلاث مناضد واثنا عشر كرسيا وبار خشبى ودستة من الاكواب وثلاث زجاجات من الخمر وصندوق صغير من الزنك بحنفية من الصفيح ، للبيرة ، ولا شىء غير هذا .. لا صورة ولا رف ولا لعبة ، الا قطعة من الفحم تحترق بهدوء فى الموقد المصقول اللامع المصنوع من الحديد الزهر ..

وشرب « ماهوى » كوبا من البيرة دون أن يطلب شيئا لزميله ، وقدم الشاب الذى معه لصاحب الخمارة .. وكان « راسنير » رجلا ضخما فى نحو الثامنة والثلاثين ، ووجهه كروى حليق وابتسامته لينة . ومنذ ثلاث سنوات كان عاملا فى المنجم ثم طردته الشركة على اثر اضراب ، اذ كان حسن الكلام متزعما لكل المطالب وطليعة للساخطين .. وعند طرده كانت زوجته — مثل كثير من نساء العمال — تدير دكانا .. فوجد المال اللازم لافتتاح الخمارة، متحديا الشركة ، وازدهر عمله وصارت خمارته مركزا للاجتماع.. واغتنى من الغضب الذى كان قد نفثه شيئا فشيئا فى قلوب زملائه السابقين ، ولم يكد يسمع ان هذا الشاب الغريب فى حاجة الى حجرة تأويه وسلفة تعينه اياما حتى نطق وجهه بالحذر الشديد وامتحن الشاب بنظرة قبل أن يقول ان حجرتيه اللتين يؤجرهما مشغولتان ...

وكان « اتيين » ينتظر هذا الرفض لكنه آلمه بالرغم من ذلك ..

لم يبق له الان حقا الا ان ياخذ من الصراف أجر يومه الواحد ويذهب الى المجهول ..

لكن « راسنير » كان يسأل « ماهوى » فى اهتمام عن أخبار المنجم ، وعندما سمع حكاية الخصم انتفخ بغضب دموى ، وانفجر :

— اذا عمدوا الى تخفيض الاجور فقد ضاعوا !..

واخذ يكرر ان الامور لا يمكن ان تستمر على هذا النحو ، فالبؤس زاد والمصانع تغلق والعمال يطردون ، ثم انه تلقى أخيرا رسالة من مدينة « ليل » مليئة بالتفاصيل المقلقة ، كتبها اليه « بلوشار » الميكانيكى الذى جاء الى الخمارة ذات مساء وتحدث الى روادها عن الازمة :

— ولقد رأيته أنت يا « ماهوى » .. أتذكره ؟

وهذا الاسم الذى ظهر فى الكلام فجأة جعل « اتيين » الصامت ينشرح ويرفع صوته :

— انا اعرفه ، « بلوشار » !.. كان رئيسى فى « ليل » وهو رجل مقتدر .. كثيرا ما تحدثت معه ..

هنا عاد صاحب الخمارة يفحصه من جديد وقد حدث فى وجهه تغير سريع واستلطاف مفاجىء .. والتفت « راسنير » آخر الامر الى زوجته — وكانت طويلة ونحيلة ومحبة للكلام — وقال لها كلمات قليلة كانت نتيجتها أن هناك فى الحقيقة حجرة رحل عنها فى الصباح من كان يشغلها ! ..

هكذا وجد « اتيين » نفسه مرتبطا بهذا الركن من الارض الذى عافته نفسه ..

والان وفى كل يوم سيعود الى النزول فى المنجم ليتعذب ويصارع ذلك الاله المتخم المقعى الذى يقدم له عشرة آلاف جائع لحمهم قربانا ، دون أن يعرفوه ..

- ٦ -

على مسافة كيلومترين من شرق « مونتسو » مزرعة صغيرة حول بيت كبير مربع بنى فى مستهل القرن الفائت على غير طراز ، ولم يبق داخلا فى حوزة أصحابه « آل جريجوار » من الاراضى الواسعة التى تحيط بالبيت غير ثلاثين هكتارا هى أحسن ما فيها ، على حين كان طريق الزيزفون الذى يشكل قبة خضراء طولها ثلاثمائة متر ، ممتدة من البوابة الخارجية الى بسطة السلم ، يعتبر احدى تحف ذلك الاقليم الاجرد الذى كانت الاشجار الكبيرة فيه أعلاما معدودة

وفى ذلك الصباح ، كان السيد الشيخ « جريجوار » والمدام التى تصغره بسنتين ينتظران يقظة وحيدتهما المدللة « سيسل » التى كانت قد تأخرت فى نومها .. وكانت الطباخة العجوز التى خدمت الاسرة ثلاثين سنة تعد فى المطبخ فطائر شهية من النوع الذى تحبه « سيسل » .. والوصيفة « هونورين » الشابة ـ التى التقطوها طفلة وربوها فى البيت ـ تنتظر هى أيضا يقظة « المدموازيل » التى جاءت الى الدنيا منذ ثمانية عشر عاما بعد أن يئس السيد والسيدة من الذرية ، فهما يعبدانها اليوم بكل أشواق العمر المكبوتة ..

كانت أسرة غنية يبلغ دخلها اربعين الف فرنك فى السنة ، وكانت ثروتها مستغلة كلها فى أسهم شركة مناجم مونتسو العتيدة ، وكل الاجيال السابقة من الاسرة قد عاشت فى رغد على هذه الحصة ، طول مائة سنة ، دون أن يعمل احد أفرادها شيئا .. كانت هذه الاسهم هى القوة الالهية الصفات التى تهدهدهم فى أسرة الكسل وتسمنهم على موائدهم النهمة ٠٠ وكانوا فى عالمهم المطمئن بعيدين عن العالم الذى يصنع لهم ذلك الخير وعن أجيال الجياع الذين يستخرجونه لهم يوما بعد يوم ..

واخيرا صحت من نومها « المدموازيل » التى تنام اثنتى عشرة ساعة وتتلقى « تعليمها » كله فى البيت ، فتاتى مدرسة البيانو من « مارشيين » كل يوم اثنين ويوم جمعة ، كما ياتى مدرس للاداب ليتحمل نزوات تلميذة طفلة النفس تقذف بكتابها من الشباك اذا لم يعجبها سؤال ..!

ووصل « دينولان » ابن عم صاحب البيت فدار الحديث عن ابنتيه « جان » و « لوسى » اللتين تحاول أولاهما أن تكون رسامة بينما الكبرى تمرن صوتها على البيانو من الصباح الى المساء ، لكن الكلام لا يلبث أن يتحول الى المناجم والارباح والخسائر . وكان « دينولان » مثل ابن عمه ، وبالوراثة ، مساهما فى شركة مناجم مونتسو قبل أن يبيع حصته فى فترة ارتفاع أسعار الاسهم كى يستغل لحسابه منجما صغيرا ورثته زوجته عن أحد اعمامها ، لكن هذا المنجم « جان بارت » ظل فى حالة سيئة ، لا تكاد حصيلته تغطى نفقاته حتى بعد أن ابتلع تجديده ثمن حصة الرجل فى الشركة الكبيرة ، وقد جاء اليوم ليسأل ابن عمه أن يقرضه مائة الف فرنك ، لكن « جريجوار » نصحه أن يبيع منجمه المزعج للشركة الكبيرة التى تلحظ منذ زمن على امتلاكه وتوسيع آباره وتجديد آلاته واستغلاله ..

ـ انا ابيعه ؟.. أبيعه لاولئك المركيزات والدوقات والجنرالات والوزراء ؟.. لهؤلاء اللصوص الذين لو ملكوا لانتزعوا من المرء حتى قميصه ؟! ..

وكانت « سيسل » تنتظر مدرسة البيانو عندما أقبلت امرأة « ماهوى » وطلبت أن ترى السيد والسيدة .. هل يدخلونها هى وطفلتها « لينور » وطفلها « هنرى » ؟ هل هم فى منتهى القذارة ؟.. فليتركوا أحذيتهم الخشبية على بسطة السلم وليدخلوا ٠٠ ودخلت امرأة عامل المنجم وطفلاها كالاشباح المثلوجة الجائعة ، وهى فى خوف من هذا البيت الذى تفوح فى صالته الدافئة رائحة الفطير الطيبة ...

وكانت امرأة « ماهوى » قد اقبلت فى طلب خمسة فرنكات ، حتى يجد الرجال عند عودتهم الى البيت ما يأكلونه ..

وفى طريقهـا اليهم مرت على « ميجرا » الذى يكدس فى مخزنه انواع البقالة واللحوم والفـواكه والخبز والبـيرة ، وقالت له فى ذل وانكسـار :

ـ هذه انا يا مسيو « ميجرا » مرة اخرى !

كان سمينا ، بارداومؤدبا ،وكان قد بدا حياته مراقبا فى المنجم ، ثم صاحب « كانتين » صغير ، ثم اتسعت تجارته بفضـل حمـاية رؤسائه فقتل صغار تجار التجزئة فى « مونتسو » واحتكر البضائع، ووفرت له كثرة الطلب من مجموعات مساكن العمال فرصـة البيع بسعر اقل من غيره ، واخذ يقرض العـمال وهو نفسه فى قبضـة الشركة التى بنت له بيته ومتجره ..

نظر اليها ببروده المتعالى ، فتلعثمت المراة :

ـ صحيح أننا يا مسيو « ميجرا » مدينـون لك بسـتين فرنكا ،لكنك لن تردنى كما حدث امس خائبة ، اذ يجب ان ناكل خـبزا من هنا ليوم السبت ...

وعند كل عبارة توسل من المراة ، كان الرجل السمين يهز رأسه رافضا فى برود ، وذراعاه معقودتان على صدره ، وكرشه بارز ..

ـ ان هما الا رغيفان يا مسيو « ميجرا » فانا لا أطلب بنـا ... لا شىء الا رغيفين فى اليوم !

واخيرا صاح بكل قوته :

ـ لا !..

وكانت زوجته قد ظهـرت ثم اختفت مذعورة من رؤية هـذه التعسة ، وهى تناشدها بعينين يلتهب فيهما الرجاء ، وكانت « مدام ميجرا » مخلوقة ضئيلة تقضى الايام عاكفة على سجل الحسـابات دون ان تجرؤ على رفع راسها ؛ وكان شائعا انهـا تنزل عن السرير الزوجى صاغرة للعاملات ونسـاء العمـال من زبائن المتجر ، وكان من المعروف أن العـامل الذى يريد مد أجل دينه لم يكن عليه الا ان يرسل ابنته او امراته دميمة او جميلة ، ما دامت سهلة طيعة..

والآن لم يبق امام امراة «ماهوى» الا ان تقصد اصحاب المزرعة ، فاذا لم يعطوها هم ايضـا ما تطلب فلترقد هى واهلهـا جميعـا ويستسلموا ويموتوا ...

وعندما مرت فى طريقها أمام مبنى الادارة ـ القصر الذى يأتى السادة الكبار من باريس والامراء والجنرالات وشخصيات حكومية لاقامة مآدب كبيرة فيه كل خريف ـ كانت وهى تسحب طفليهـا « تنفق » الفرنكات الخمسة وتوزعها بين الخبز والبطاطس والبن وقليل من الزبد ونصف رطل من جبن الخنزير ...

ومر بها « الاب جوار » قسيس « مونتسو » وقد شمر ثوبه فى اناقة قط حسن التغذية يحاذر أن يبتل ، فحيته فى رجاء لكنـه لم يتوقف واكتفى بأن أبتسم للطفلين العابثين فى الوحل .. ولم تكن للام ديانة ، لكنها كانت قد تصورت ان رجل الكنيسـة سوف يعطيها شيئا .. !

واخيرا وصلت المزرعة وأدخلوها بعد تردد ووقفت بين طفليهـا فى تلك الصالة الدافئة ، وامام سيد وسيدة ممددين فى حالة هضم فى مقعدين مريحين .. والمبدأ فى هذا البيت الا تكون الصـدقة نقدية ، فان « الفقير اذا حصل على اى نقود انفقها فى الحال فى شرب الخمر » بل عينية ، وفى الغالب تكون صدقة « آل جريجوار » فى شكل ملابس توزع فى الشتاء على الاطفال المعوزين .. وهبت « سيسـل » تأمر وصيفتها « هونورين » ان تأتيها بالربطة التى فى الدولاب .. وفتح الطفلان عيونهما الكبيرة على بقايا الفطيرة فوق المائدة .. وانتظر الفقر والغنى وجهالوجه ..

رأت « مدام جريجوار » أن تشغل فترة الصمت القلقة حتى تجىء الوصيفة بالملابس القديمة ، فسألت المراة الواقفة أمامها :

ـ اليس عندك الا هذان الاثنان ؟

ـ عندى سبعة ! ..

فانتفض السـيد الذى كان قد عاد الى قراءة جريدته انتفاضـه مستنكرة :

ـ سبعة اولاد ! .. لماذا ؟ .. يا الهى ! ! ..

وتامل الكائنـات الآدميـة الواقفة أمامه فى خشـوعها ، والتى فرشتها الانيميا وطبعها الجوع بدمامة حزينة ، وقال للمراة :

ـ العمال ليسوا حكماء ولا يدخرون مثل فلاحينا بل يشربون ويستدينون ، وتكون النتيجة الا يجدوا قوت الاسرة ..

قالت امرأة « ماهوى » جاهدة ألا تغضب السيد :

ــ السيد على حق ، لكن زوجى أنا مستقيم ، ومع ذلك فان استقامته لا تجدينا نفعا ! .. وهناك أيام ــ مثل اليوم ــ نظل فيها نقلب جميع ادراج بيوتنا دون أن يسقط منها سنتيم واحد ! ..

وكانت تريد أن تصل الى ذكر المبلغ المنشود ، فاستمرت بصوتها الرخو تفسر حتمية الاستدانة ، وأنه ربما كان العمال فى الحقيقة لا يكسبون ما يكفيهم ...

فقالت السيدة متسائلة :

ــ كنت أعتقد أن الشركة تعطيكم المسكن والتدفئة ؟ والمرأة رمت الفحم المتوقد فى المدفأة بنظرة قبل أن تتكلم :

يعطوننا فحما رديئا .. اما عن المسكن فقد تبدو ستة فرنكات فى الشهر اجرا للمسكن شيئا بسيطا ، ومع ذلك فان دفعها يكون فى بعض الاحيان صعبا .. وهكذا ، اليوم مثلا ، لو قطعونى لما حصلوا منى على شىء .. وليس معنى هذا انى أشكو ، فهذه هى طبيعة الامور ، ويجب أن نتقبلها .. وخير للانسان أن ينجز عمله بشرف فى المكان الذى وضعه فيه الاله الطيب ..

فبادر السيد يؤمن على هذا الكلام :

ــ بمثل هذه المشاعر ، أيتها المرأة الطيبة ، يضع الانسان نفسه فوق الشقاء !! ..

واخيرا وصلت الربطة وفتحتها « سيسل » واخرجت منها فستانين وشيلان وجوارب حزمتها الخادمتان فى عجلة ، لان مدرسة البيانو كانت قد وصلت ، ثم دفعت « المدموازيل » الام وطفليها نحو الباب ...

هنا تعلثمت امرأة العامل وهى تقول :

ــ نحن فى ضيق ، فلو ان لدينا قطعة من ذات الخمسة فرنكات فقط ...

لكن العبارة اختفت فى عزة نفسها ، فنظرت « المدموازيل » الى ابيها فى قلق ، لكنه رفض بوضوح حاسم ، قائلا بلهجة من يؤدى الواجب :

ــ لا .. ليس هذا فى عاداتنا .. لا نستطيع ..

وتآثرت « المدموازيل » بوجه الام فقطعت من باقى الفطيرة قطعتين ولفتهما فى جريدة قديمة ، واعطت اللفة للطفلين وهى تدفعهما مع امهما ، تحت النظرات المتأثرة من أبيها وأمها



ـ ٧ ـ

فى طريق العودة دخلت امراة « ماهوى » مرة أخرى دكان «ميجرا» والقت فى وجهها بياسها المستميت ، فانتزعت منه فى هذه المرة رغيفين وكمية صغيرة من البن وزبدا وفوقها الفرنكات الخمسة .. وصحيح انه افهمها انه يريد « كاترين » ـ عندما اوصاها ان تبعث اليه فى المرة القادمة بابنتها ـ لكن البنية ستعرف اذا دنت منها انفاسه كيف تصفعه !

ورجعت الام الى البيت بما تحمل فوجدت أن ابنتها الحدباء«الزير» قد تعهدت النار وكنست الصالة ورتبتها ، كما حاولت أن تقنع الرضيعة الصارخة « استيل » التى تركتها لها امها بالرضاعة من ثديها الطفل ، ثدى بنت السنوات التسع .. واخذت الام طفلتها الجائعة وأرضعتها ، ثم ذكرت فجأة أنها مدينة لامراة « بييرون » بمقدار طحنة من البن كانت قد اقترضتها منها اول أمس ، فاخذت الكمية ولفتها فى ورقة وخرجت حاملة رضيعتها بين ذراعيها ، تاركة العجوز « الموت الطيب » يهرس البطاطس للطبخ ، بينما يتعارك « هنرى » و « لينور » على اكل القشور الساقطة ..!

وامام الكنيسة رات زوجة المدير تطوف بضيفين هما سيد يحمل وساما وسيدة تلبس معطفا من الفراء فى زيارة لمساكن العمال ..

وقالت امراة « بييرون » لها عندما دخلت وردت لها البن :

ـ لماذا اتعبت نفسك ؟.. لم يكن هناك ما يستعجلك !..

كانت امراة فى الثامنة والعشرين ، سمراء بعينين واسعتين وفم صغير ، وكانت لها سمعة اجمل امراة فى المجموعة ، وهى لعوب فى نظافة القطة ، وصدرها محتفظ بجماله لانها لم يكن لها ابناء .. وكانت هى وزوجها « بييرون » يعيشان فى هناء بالرغم من الشائعات عن تساهله وعن عشاقها .. فلا ديون ، واللحم مرتان فى الاسبوع

والبيت نظيف يرى الناظر فيه صورته فى الكسرولات .. وكان عندها تصريح من الشركة ببيع الحلوى والبسكويت ، فكانت تعرضها فوق رفين وراء زجاج الشباك .. ولم يكن ينغص حياتها الا أمها «لابروليه» (المحروقة) وهى أرملة عامل مات فى المنجم ولا تكف عن الصراخ مطالبة بالانتقام ، ثم تصب غضبها صفعات على وجه الطفلة « ليدى » ابنة « بييرون » من زواج سابق ..!

وعند عودة امراة « ماهوى » الى بيتها دعتها جارتها الاخرى امراة « ليفاك » ـ وأم « فيلومين » عشيقة ابنها « زخارى » ـ الى فنجان من القهوة ..

دخلت فى هذه المرة بيتا قذرا سيء الرائحة ، ووجدت بالقرب من النار العامل « بوتلو » الذى يسكن عند جيرانها هؤلاء ، وكان عند دخولهما يجهز على وجبته ، بينما وقف له بالمرصاد « أشيل » أول ابناء « فيلومين » الذى لم يتم عامه الثالث ، وهو ينظر الى طعامه تلك النظرة المتوسطة الصامتة التى تكون فى عينى الحيوان الشره ، فيحشو له « الساكن » اعماق فمه الكبير من وقت الى اخر بقطعة صغيرة من اللحم .. أما هى ـ امراة « ليفاك » ـ فكانت تكبره بست سنين ، فظيعة مستهلكة ، والصدر على البطن والبطن على الفخذين ، وشعرها لا يعرف المشط .. لقد اخذها هذا الفحل الذى يبلغ الخامسة والثلاثين دون ان يقشرها أكثر مما تقشر هى خضار حسائها ، الحساء الذى كان يجد فيه شعر راسها .. لم يطلب منها ان تكون انظف من ملاءات سريرها التى لا تغيرها قبل ثلاثة أشهر .. أنها جزء من « البنسيون » داخل فى الصفقة .. والزوج نفسه كان يحلو له أن يكرر ان الحساب الجيد يوجد الاصدقاء الجيدين !

وجاءت امراة أخرى وعلى يدها طفلة فى شهرها التاسع هى «دزيريه» اخر ذرية « فيلومين » ، اذ كانت تؤخذ كل يوم الى أمها فى المنجم لترضعها فوق كومة فحم .. فتكلمت المرأتان فى ضرورة زواج « زخارى » و « فيلومين » اخر الامر .. ولم تكن أم الشاب تستعجل هذا الزواج فى الحقيقة ، حرصا على أجر ابنها النافع للاسرة ، على حين كانت أم البنت تستعجل الخلاص من ابنتها وطفليها اللذين يلتهمان اجرها فلا يبقى منه للأم اى نفع ؟

ومن الشباك رات المراتان زوجة المدير وضيفيها يدخلون عند امراة « بيرون » ليتفرجوا على بيتها النظيف ، ثم خرجوا واتجهوا فى هذه المرة نحو بيت امراة « ماهوى » نفسها .. فاندفعت الى بيتها لتجد « الزير » منهمكة فى طهى الطعام فى رزانة ، والطفلين يمزقان كراسة فى صمت ، والجد « بون مور » يدخن غليونه فى سكون ، وزوجة المدير تفتحم الباب مبتسمة ، طويلة وشقراء فى نضج الاربعين ، وهى تبذل جهدا لتظهر بالبشاشة اللائمة ولا تكشف خوفها من اتساخ ملابسها !

وكانت زوجة المدير « مدام هينبو » تدعو من معها الى الدخول :

ـ ادخلا ، ادخلا فنحن لا نزعج احدا !.. اليس هذا ايضا نظيفا ؟.. وهذه المراة الطيبة عندها سبعة اولاد .. كل بيوتنا هكذا .. وفى كل بيت صالة كبيرة فى الدور الاول وحجرتان فى الدور الثانى وقبو وحديقة .. وهناك طبيب يزورهم مرتين فى الاسبوع .. وعندما يشيخون يأخذون معاشات بالرغم من اننا لا نحجز شيئا من اجورهم !!

ورفض الثلاثة الضيوف أن يجلسوا على الكراسى التى اندفعت المراة لتقديمها واكتفوا بامتداح البيت والثناء على جمال الطفلين ..

وكان « الموت الطيب » قد أبعد غليونه عن فمه باحترام ، لكنه اخذته نوبة سعال عنيف اضطره الى الخروج ليبصق فى الخارج ..

أما الحدباء فقد ظفرت بالنجاح كله ، وقيل نفاقا يالها من ربة بيت جميلة متمرنة من الان على شغل البيت !

واختتمت زوجة المدير الزيارة :

ـ والان ، اذا سالوكم فى باريس عن مساكن عمالنا فانكم تستطيعون أن تردوا .. الكل سعداء وصحتهم جيدة كما ترون .. وهواء طلق وهدوء !..

وخرجوا فى ابتهاج الخارجين من ملهى عجائب ..!

وكانت الزيارة قد جمعت النساء فى الشارع ، ثم توقفت أمام الكنيسة عربة صغيرة مكشوفة ونزل منها المدير العام فى ردنجوت اسود ، وسط فضول متزايد من نساء المجموعة الاولى اللاتى شكلن جماعات أخذت تتقارب حتى ذابت فى جمهور واحد ..

وتحركت العربة بالسيدين والسيدتين تاركة وراءها جمهورا نسائيا لاغطا كأنه عش نمل فى حالة ثورة .. لكن ما ان ظهر عند زاوية الكنيسة

أول العمال العائدين فى الساعة الثالثة من المنجم حتى تفرق النساءفى ذعر كل الى بيتها ، ثم لم يعد يسمع الا هـــذه الصيحة القلقة المثقلة بالشجار :

ـ آه ! .. وطعامى الذى ليس جاهزا !..

وبعد هذه الوجبة كانت تقبل ساعة الاغتسال فى مجموعة البيوت كلها ، وهى ساعة الترويح عن النفس ، الفريدة فى اليوم كله ، وتبدا فى بيت « ماهوى » باستحمام « كاترين » أولا ، أمام الجميع ، ثم يتوالى الاخرون ، حتى لا يبقى فى الصالة السفلى آخر الامر غير الاب والام والرضيعة ...

وفى ذلك اليوم نزلت « كاترين » بفستان الاحد المصنوع من البوبلين الازرق ، وهو شاحب ومستهلك ، وعلى رأسها طاقية بسيطة من التل الاسود ، وقالت انها ذاهبة الى « مونتسو » لتشترى شريطة جديدة لشعرها ...

ـ ومن أين لك النقود ؟..

ـ وعدتنى « موكيت » أن تقرضنى نصف فرنك ..

وتركتها الام تخرج بعد أن نصحتها بالابتعاد عن « ميجرا » وشراء الشريطة من محل آخر ، واكتفى الاب بأن يضيف الى ذلك قوله :

ـ وحاولى الا تتسكعى طول الليل فى الطرق !



- ٨ -

في ظلمة ليلة جلس « اتيين » عند اطلال منجم مهجور اسمه « ريكيار » يتأمل فتى وفتاة وهما يغيبان وراء ركن حظيرة متهدمة .. لم يتبين ان البنت هي « كاترين » وأن رفيقها هو « شافال » الذي اشترى لها شريطة الشعر واخذ الثمن منها في نفس المساء استسلاما طائعا .. كان خروج الفتية والفتيات الى الخلاء مسألة شائعة مألوفة ، حتى البنات اللاتي لم يبلغن مبلغ النساء ، بل ان بعض الاطفال أيضا كانوا يقلدون الكبار .. لكنه عرفهما وهما في طريق العودة الى المساكن الهاجعة ، حيث يسقط الشغيلة من المائدة الى الفراش منسحقين من الاجهاد .. وعندما عرفها هي بذاتها ذهل وهزه ألم مبهم !

لكن الايام تتابعت فصارت أسابيع وشهورا انتظم خلالها وجوده مع عمله الجديد وعاداته الجديدة وكل ذلك الجو الوعر الذي كان قد ظهر له في البداية صعبا ومخيفا .. وهو الان مثل زملائه يستيقظ في الساعة الثالثة ويشرب القهوة ثم يحمل « التصبيرة » التي تجهزها له « مدام راسنير » من الليلة الفائتة ويخرج الى المنجم .. كل شيء صار عنده مألوفا ، الفحم والآلات والعربات والاقفاص .. والاعماق والناس .. في طريقه الى المنجم لابد أن يلقاه العجوز « بون مور » في عودته الى النوم ، فاذا خرج من المنجم بعد الظهر قابله « بوتلو » الذاهب الى عمله في « وردية » العصر ... والآن يعرف ممرات منجم « فورو » خيرا مما يعرف شوارع « مونتسو » ، ويعرف أين ينعطف وأين يحني راسه تحت نتوءات السقف ، ويستطيع أن يقطع الكيلومترين تحت الارض بدون مصباحه ، ويداه في جيبيه ..!

واحبه الناس ، واحترمه « ماهوى » عندما رآه يقرأ ويكتب ويتكلم عن امور يجهل هو مجرد وجودها ، وصار « ليفاك » يحب أن يتكلم معه في السياسة ، وخفت حدة الجفاء بينه وبين « شافال » بسبب

« كاترين » التي كانت الآن تتلقى ملاطفات « شافال » علنا بينما تغضى اسرتها عن العلاقة باعتبارها زواجا مؤقتا مؤجلا ومعترفا به ، كما جرت العادة .. !

وكان قد جاء الربيع فأباح حقول القمح للعشاق في الليالي ، فاذا مر « اتيين » فيها استطاع أن يخمن اعشاشهم المتناثرة بين السنابل الفضة الطويلة ، واذا عاد الى خمارة « راسنير » التي يسكن تحت سقفها جلس أمام كوب من البيرة يكلم جاره « سوفارين » الذي يشغل الحجرة الثانية المجاورة لحجرته .. وكان هذا العامل شابا يبدو في الثلاثين واشقر نحيلا ذا وجه رقيق يحيط به شعره الغزير ولحيته الخفيفة .. ولم يكن في حجرته شيء غير صندوق الاوراق والكتب .. وكان غامض المنبع قليل الكلام عن نفسه ، وعمال الفحم بطبيعتهم يتوجسون من الاجانب ، فقيل انه من طبقة أخرى لان له يدين صغيرتين لاتكونان الا لبورجوازي ، وتخيلوا له حادث قتل هرب من عقوبته ، ثم اطمأنوا آخر الامر الى نفسه الهادئة والى كلمة اللاجئ السياسي التي شاعت عنه والتي كانت تشعرهم من نحوه بزمالة في الالم ...

وكان « اتيين » في الاسابيع الاولى قد ساءه من الجار الزميل ذلك التحفظ النافر ، ثم عرف فيما بعد أن « سوفارين » هذا كان في وطنه آخر أبناء أسرة من النبلاء ، وقد هجر دراسة الطب عندما دفعته ميوله الاشتراكية الى البحث عن مهنة يدوية هي مهنة الميكانيكي كي يختلط بالشعب ويعرفه ويساعده كأخ .. وقد هرب من عاصمة القيصرية الروسية بعد محاولة فاشلة لاغتيال القيصر كانت نتيجتها أن تبرأت منه أسرته .. وكان رؤساؤه في المنجم راضين عن كفاءته وصمته ، وكان يحترم المراة ويعتبرها مجرد زميل من زملاء العمل ، ويعيش بلا امراة ولا صديق ، بلا رباط يقيده ..

وقال له « اتيين » ذات مساء :

ـ أتعرف ؟ لقد تلقيت خطابا من « بلوشار » ويبدو أن جمعيته في « ليل » تزدهر ..

فأبدى « سوفارين » رايه بايجاز :

ـ كلام فارغ ! ..

كان الكلام عن الجمعية الدولية للعمال التى كانت قد تم خلقها فى لندن واندلع صيتها ، وكرر « سوفارين » كلامه :

ـ كلام فارغ ! .. لاحل الا أن تشعل النار فى اربعة اركان المدن ويجتث كل شىء ، ثم ينبت بعد ذلك فوق خرائب العالم المتعفن عالم أفضل ! ..

ضحك « اتيين » من هذه الفوضوية وقال انه على العكس من ذلك يريد ان ينشىء فرعا للجمعية فى « مونتسو » طبقا لتوجيهات « بلوشار » الذى كان سكرتيرا لاتحاد الشمال .. وكان يعتقد أن الاضراب قريب ، فان مسألة الدعائم الخشبية لن تنتهى الا نهاية سيئة ، ولم يبق الا ضغط آخر من الشركة ويثور العمال كلهم .. وهو يرى أن الوقت قد حان فعلا للتفكير فى هذه الامور ..

واشترك صاحب الخمارة فى الحديث فقال ان هذا الحال يجب ان ينتهى ، بطريقة أو بأخرى ، اما بالقوانين والاتفاق الودى او بالعنف .. ولن ينتهى القرن دون أن تكون قد حدثت ثورة الذين لم ينالوا شيئا من التزايد الفذ للثراء وللرخاء منذ مائة سنة ، منذ قامت ثورة البورجوازية .. وهذه الثورة الجديدة هى التى ستنظف المجتمع من فوق الى تحت وتعيد تنظيمه بمزيد من النظافة والعدالة

لكن « سوفارين » عاد يقول وعيناه هائمتان ، كما لو كان بصوته الخفيض يكلم نفسه :

ـ الاتفاق الودى ؟ رفع الاجور ؟ هل هذا فى الامكان ؟ ... ان الاجور مثبتة عند حد القوت الضرورى ، فاذا انخفضت مات العمال ، ثم يعيدها الى الصعود « الطلب » على عمال جدد ، واذا ارتفعت اعادها « العرض » الى الانخفاض ... انه توازن البطون الخاوية ...

وعندما كان ينسى نفسه على هذا النحو ويعرض الامور من وجهة نظره الخاصة ، كان « اتيين » و « راسنير » يظلان قلقين امام تأكيداته المؤسفة التى لايعرفان كيف يكون الرد عليها .. واستطرد وهو ينظر اليهما فى هدوئه المألوف :

ـ اتسمعون ؟ .. ينبغى تحطيم كل شىء ، والا فان الجوع سينبت من جديد ... لا حل الا الفوضى ، ولا شىء غيرها ! ... لا حل الا ان تستحم الارض بالدم و تتطهر بالحريق ، ثم بعدها

أوى ! ..

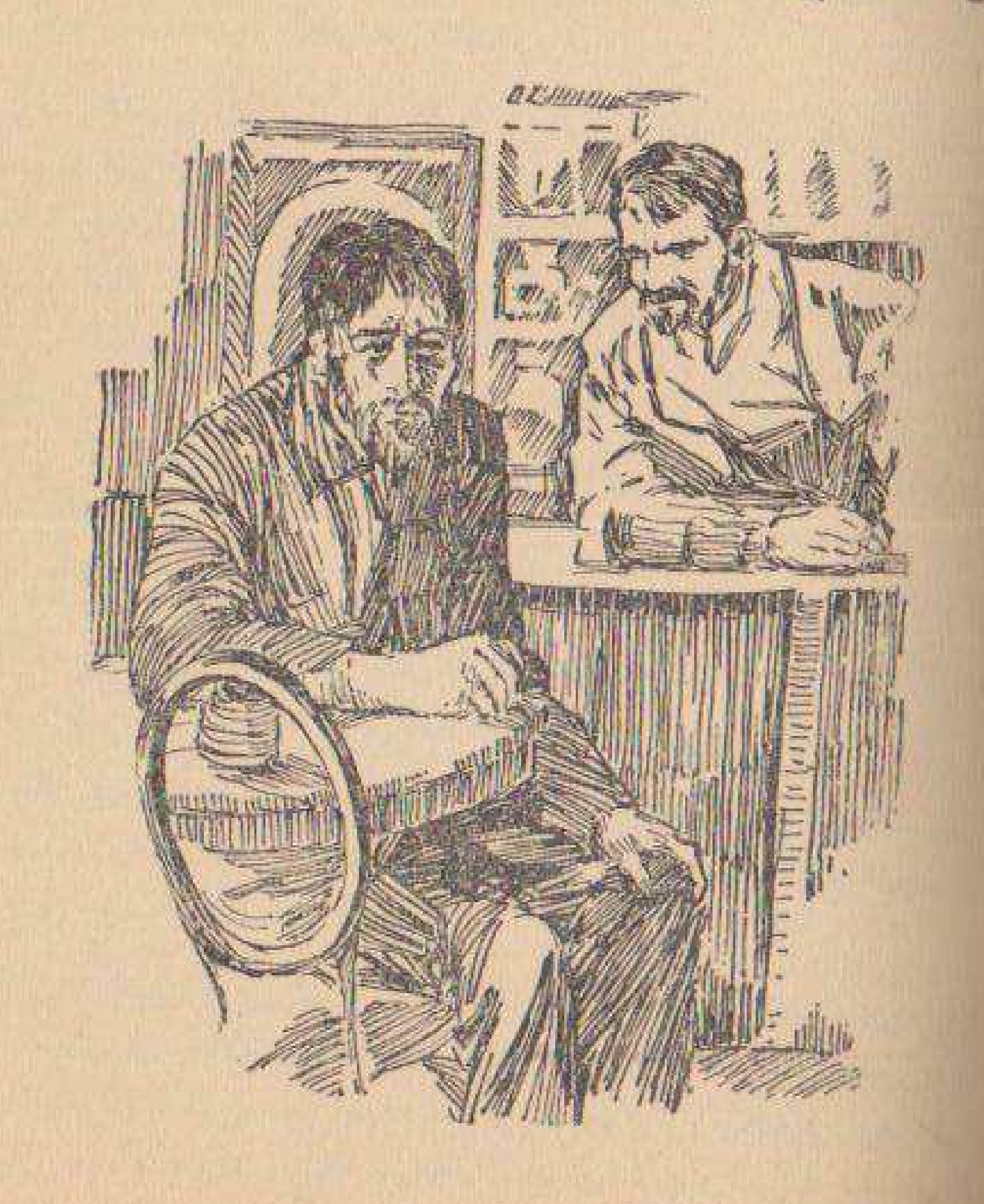
وكل مساء كان ينشب حوار كهذا فى الخمارة العارية ، فتصحو الافكار المبهمة فى اعماق « اتيين » وتضطرب وتتمدد ..

ولتهمه قبل كل شىء حاجة الى المعرفة ، ويستعير الكتب من زميله ، ويعجب بكتاب « الجمعيات التعاونية » الذى يصفه « سوفارين » بأنه هو ايضا كلام فارغ ... كما صار يقرأ بانتظام جريدة « الكفاح » التى تصل الى « سوفارين » من جنيف ...

كان صاحب الخمارة معتدلا ..

وكان سوفارين فوضويا ..

وكان الثالث بينهما يتلمس طريقه بشغف واندفاع ..



— ٩ —

فى الايام الاولى من يولية حدث فى عرق من عروق المنجم صدع خسف الفحم فى اعماق الارض ، فأعلنت الشركة عن مزاد على « مقاولة من الباطن » فى هذا الجزء من المنجم ، وقرر « ماهوى » أن يدخل فى المزايدة وطلب الى « اتيين » أن ينضم اليه فى هذه المقاولة ، فى مكان « ليفاك » الذى فضل على هذه المخاطرة أن ينتقل الى العمل فى قسم آخر من المنجم

وكان المقطع المعروض فى المزاد واقعا فى الممر الشمالى ، فنزلا اليه وفحصا العرق فاذا هو يبلغ من الرقة حدا كبيرا ، فى أرض متهاوية محشورة ، لكنهما اندفعا مع الرجاء فذهبا يوم الاحد الى المزاد حيث اجتمع امام منصة المهندس من خمسمائة الى ستمائة عامل جاءوا لمنافسة بعضهم البعض على فتات الشركة .. وارتفع الصياح بأرقام تخنقها فى الحال أرقام اخرى ، وكانوا جميعا يبادرون الى تخفيض السعر ، مدفوعين بقلقهم من اللغط الدائر حول الازمة العامة ورعبهم من البطالة ..

وحصل « ماهوى » ومن معه على حصة تبلغ خمسين مترا ، بعد صراع مع زميل آخر كان مثل « ماهوى » عنيدا ، فجعل كل منهما ينقص من سعر العربة ، مرغما على أن « يأكل » الآخر ..

وجاء يوم الاحد الاخير فى يولية — يوم العيد فى « مونتسو » — فذبحت الارانب التى كانت تسمن منذ شهر ، وخرج الجميع الى البلدة فى طلب شىء من المتعة

وكان « اتيين » فى شغل بفكرة انشاء « صندوق طوارىء » يعتمد عليه العمال فى حالات الانقاذ السريع ، وقد وافق « ماهوى » على الفكرة بعد ان ناقش معه تفاصيلها وتنظيمها ، وسأله ان يحاول اقناع الآخرين .. واسرفا وسط بهجة العيد فى شرب البيرة بعد أن انضم

اليهما « ليفاك » و « بيبرون » ، ثم اقترح « ليفاك » أن يذهبوا الى ملهى « البركان » فدخلوه بعد تردد .. وهناك ، فى اقصى الصالة الضيقة الطويلة ، وفوق منصة من الواح خشبية ، كانت خمس مغنيات من نفاية بقايا « ليل » يستعرضن عريهن المنفر .. وكان ثمن الواحدة منهن نصف فرنك ، وفى الجمهور غلمان فى سن الرابعة عشرة ، وكل شباب المنجم .. !

ولم يكد يجلس الاربعة حتى استولى « اتيين » على « ليفاك » بدوره ليشرح له فكرة « صندوق الطوارىء » بعناد المؤمنين الجدد فى كل عقيدة ..

— كل عضو يستطيع أن يدفع نصف فرنك فى الشهر ، وبأنصاف الفرنكات هذه ينمو رصيدنا فى اربع سنوات او خمس .. وعندما يكون لدى الانسان مال فانه يكون قويا ، أليس كذلك ؟ .. هه ؟ .. ماقولك ؟ ..

وفى كل الخمارات كان العمال يسكرون ثم يتجمعون حول عربات اليد ومافوقها من لعب وقبعات ومرايا وسكاكين وحلوى ، وهناك رمى بالقوس ، ولعب بالكور الحديدية الصغيرة ، وصراع ديكة ، وسوء هضم من البيرة والبطاطس المقلية ..

وفى النهاية يشتد الزحام فى « كباريه البون جوايه » امام اكواب البيرة التى تقدمها الارملة « دزير » التى بلغت الخمسين .. وكانت تدعو كل عمال الفحم « أطفالها » وترحب بهم فى صالتها الواسعة المزينة باكليلين من الازهار الورقية متعانقين من زاوية السقف الى زاويته الاخرى ، ومجتمعين فى منتصف المسافة بتاج من الازهار نفسها ، وعلى الجدران صور دقيقة مذهبة للقديس « ايلوا » شفيع عمال الحديد والقديس « كريبان » شفيع عمال الاحذية والقديسة « بارب » شفيعة عمال المناجم ..

وفى الاركان اربعة مصابيح بترولية تنير الراقصين على أنغام الفرقة المكونة من ثلاثة موسيقيين .. وفى الجمهور المتكوم على الكراسى حول الموائد امرأة « ماهوى » وثديها العارى فى فم طفلتها « استيل » وحولها اطفالها « الزير » و « هنرى » و « لينور » ، وامرأة « ليفاك » فى صحبة « بوتلو » الذى يمسك بيديه « اشيل »



وطلب كتبا اساء هضمها وهيجت نفسه، ومن بينها كتاب فى الطب عنوانه « صحة عامل المنجم » ...

و « دزيريه » طفلى « فيلومين » من « زخارى » ... وخلال رقصة البولكا مال « ماهوى » على اذن امراته واقترح عليها ان ياخذا « اتيين » ليسكن عندهما ، حتى تعوض نقوده نقود « زخارى » الذى اتفقت الاسرتان فى هذه الليلة على ضرورة زواجه من « فيلومين » آخر الامر ... على حين كان « اتيين » نفسه يقنع « بييرون » هو الآخر بفكرة صندوق الطوارىء ، واقتنع الرجل ووعد بالانضمام ، عندما انزلق لسان « اتيين » فكشف غرضه الحقيقى :

— سينفعنا هذا الصندوق فى حالة الاضراب ، اذ نستطيع بذلك المال المدخر ان نقاوم الشركة ونصمد لها !

عندها شحب لون « بييرون » واطرق قائلا :

— اعطنى مهلة للتفكير ! ..

وفى نهاية يوم العيد قبل « اتيين » شاكرا أن يسكن فى بيت صديقه بعد زواج ابن الاسرة البكر ، وعاد الجميع الى البيت سكارى ، حتى الاطفال ، وتخلف الشبان مع الشابات فى حقول القمح .. !

ولم ينتصف اغسطس حتى كان « اتيين » قد احتل بالنسبة لـ « كاترين » مكان الاخ الاكبر — الذى حصل لزوجته وطفليه على بيت خال من بيوت الشركة — فاقتسم « اتيين » الفراش مع « جانلان » الى جوار سرير الاخت الكبرى ، وراته هى — بحكم الضرورة — وهو يخلع ملابسه ويرتديها امامها ، كما رآها عند النوم وعند اليقظة ، كاسية وعارية — شفافة الجسم شقراء انيمية .. ومثله مثل غيره ، قتلت العادة استحياءه من العرى ، فما ظل منه أو منها مستورا ، حتى الحاجة الطبيعية .. لكن ذهنه كان منصرفا عنها الى حالة التخمر المكتوم التى يجتازها هو وزملاؤه ...

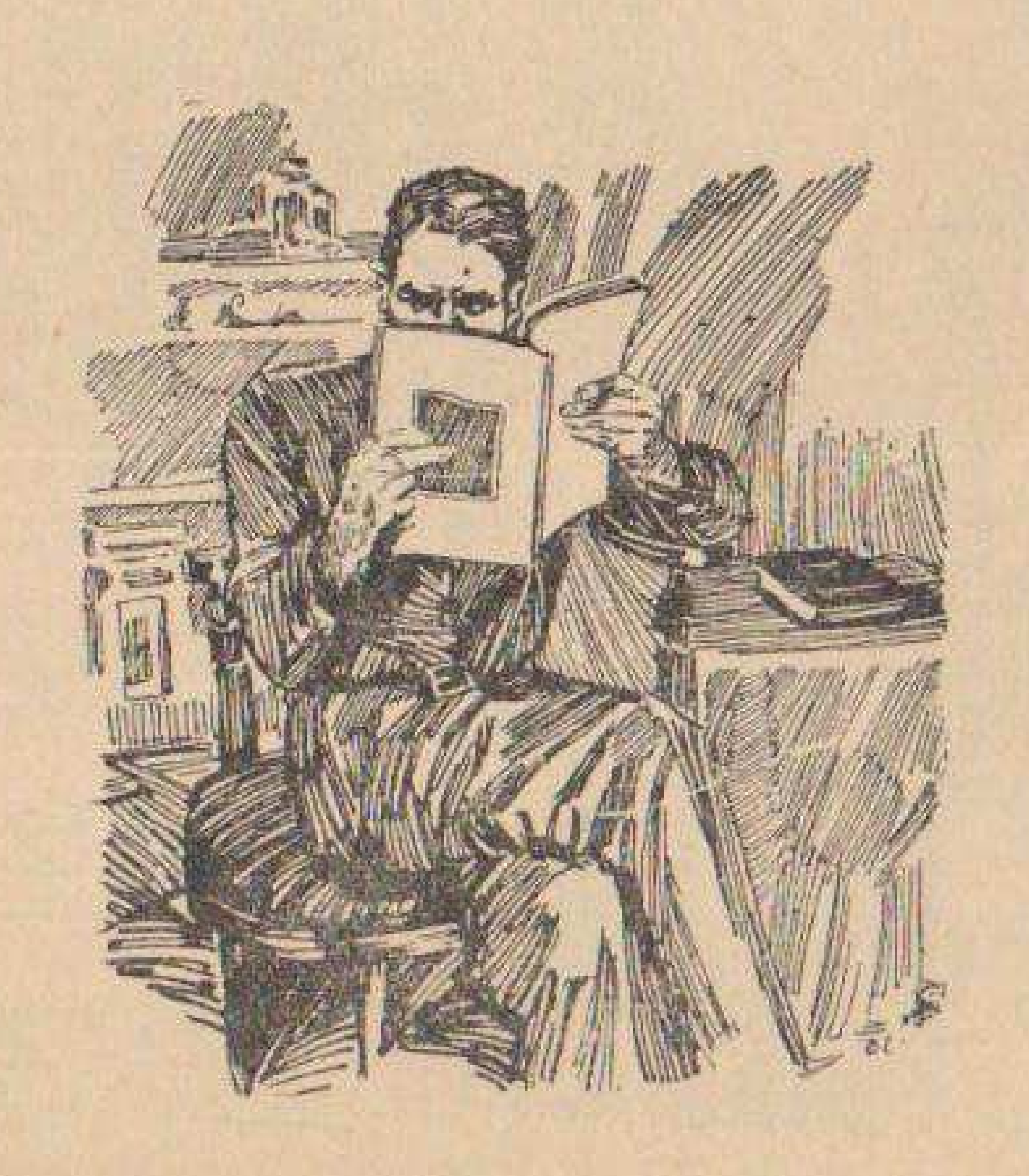
كانت أسئلة عديدة غامضة من كل نوع تعرض له ، وكان ادراكه لجهله يخجله ويحزنه ...

انه لايعرف شيئا ! ..

وطلب كتبا اساء هضمها وهيجت نفسه ، ومن بينها كتاب فى الطب عنوانه « صحة عامل المنجم » الذى جمع فيه مؤلفه الطبيب البلجيكى انواع العلل التى يموت بها شعب المناجم ، وكتب فى الاقتصاد السياسى ذات جفاف تكنيكى غير مفهوم ، وكتيبات فوضوية كانت

تقلب راسه ، واعداد قديمة من الصحف ، مطالعات شتى ذهب معها بعض خجله من جهله .. ثم اخذه فى النهاية زهو من يحس انه يفكر ، وامتزجت فيه المطالب العملية التى يرددها « راسنير » بالعنف التخريبى الذى ينفثه « سوفارين » ، لكن وسائل التنفيذ مبهمة امامه ، وذهنه يتشتت كلما اراد ان يخرج من تيه مطالعاته ومناقشاته ببرنامج انشائى ..

وقد نقل المناقشة معه الى بيت « ماهوى » فعلمهم كيف يتأخرون عند المائدة بعد العشاء قبل ان يدخلوا مراقدهم .. اهذه حياة ؟ .. فى هذه البيوت ، حيث لايستطيع الانسان ان يغير قميصه دون ان يرى الجيران مؤخرته ؟! .. ان النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحياة هى : رجال سكارى وبنات حبالى .. أليس فى الامكان ان نصنع بأنفسنا وعلى الارض فردوسنا ؟



— ١٠ —

كان يتكلم والبنت تسمعه وهى تعتمد ذقنها بيديها وتحدق فيه بعينيها الكبيرتين الصافيتين ، وتعيش فى عقيدته التى يفتح بها المستقبل السحرى لحلمه الاجتماعى ..

أليس فى الامكان أن نصنع بانفسنا وعلى الارض فردوسنا ؟! ..

عندما يتكلم يبدو لها ولغيرها كان شعاعا من الشمس يطعن ظلمة الافق البغيض فيتهاوى رماد عالم متعفن وتبزغ انسانية شابة مطهرة .. !

ايكون هذا الحلم الجميل قريبا ؟ .. وكيف لنا ان نصنعه ؟ ..

هنا كان « اتيين » يبدو غامضا ويتوه هو نفسه احيانا فى شروحه وتفسيراته .. !

لكن الاسرة كان يبدو عليها مع ذلك انها تفهم وتوافق وتقبل الحلول الاعجازية ، بايمان المؤمنين الجدد ، الشبيه بايمان أولئك المسيحيين الاوائل فى العصور الاولى ، الذين كانوا — بايمان مطلق — ينتظرون مشرق مجتمع كامل فوق انقاض العالم القديم المنهار ..

وفى بعض الاحيان كان الجيران يجيئون للاشتراك فى هذه المناقشات ويخرجون فينشرون صيت الشاب الذى لم يلبث أن انشأ « صندوق الطوارىء » فى سبتمبر ، وقصره فى البداية على سكان هذه المجموعة وحدها من مساكن العمال ، راجيا أن ينضم اليه بعد ذلك سائر عمال الشركة .. وعندما اختير سكرتيرا للجمعية تكشفت له فى نفسه غرائز ترف كانت هاجعة فى فقره ، فاشترى ملابس حسنة وحذاء جلديا رقيقا ، وصار زعيما يتجمع حوله زملاؤه ، وسرت فى وجهه مسحة وقار ، وزاد ارتفاع الجدار النفسى الذى كان قد بدا يعلو بينه وبين « كاترين »

وفى يوم صرف الاجور ثارت ثائرة العمال أمام اعلان معلق فى مكتب

الصراف يتضمن اخطارا من الشركة الى جميع عمالها بانها ازاء قلة العناية بالدعامات الخشبية وعدم جدوى الفرامات العقيمة قد اتخذت قرارا بتطبيق طريقة جديدة لدفع الاجور ، فهى منذ الآن ستدفع اجر عملية التدعيم بالخشب على حدة ، بالمتر المكعب من الخشب المستخدم ، اما سعر الفحم المستخرج فسيخفض بنسبة خمسين سنتيما الى اربعين ، حسب طبيعة طبقات المنجم وبعدها ، ورغبة من الشركة فى اتاحة الفرصة للجميع للاقتناع بالمزايا الجديدة ، فانها تنوى تطبيق هذا النظام ابتداء من يوم الاثنين اول ديسمبر ..

وكان كل مافى صندوق العمال حتى ذلك الوقت ثلاثة آلاف من الفرنكات قال « راسنير » انها لاتكفى الخبز وحده ستة ايام ، فنهر « اتيين » واتهم حماسته للاضراب والتفت نحو « سوفارين » وسأله :

— وانت ؟ .. ماقولك ؟ ..

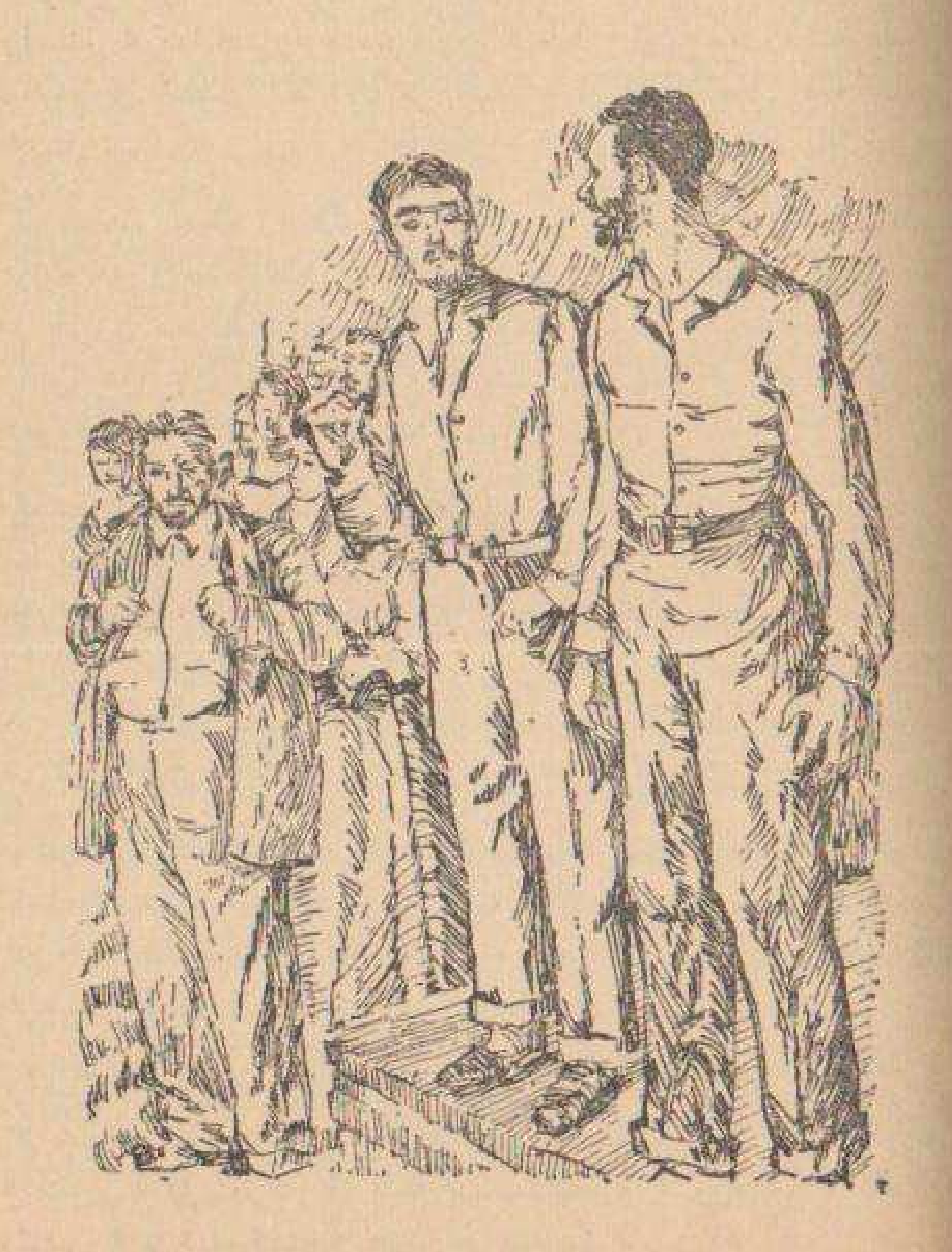
وكان « سوفارين » هو الوحيد القادر على تحليل الموقف : فان الشركة وقد مستها الازمة العامة مضطرة الى تخفيض نفقاتها ، وعلى العمال بالطبع ان يضغطوا على بطونهم ، فهى تعمل على تخفيض أجورهم بكل حيلة متعللة بأسباب واهية ، ولعلها هى التى ترحب الآن باضراب يخرج منه « شعبها » العامل مروضا واقل اجرا .. ان صندوق الطوارىء الجديد هذا قد أقلقها ، بينما الاضراب يخلصها من ذلك الصندوق ويفرغه قبل أن يستفحل ويشكل تهديدا للمستقبل .. اما الاضراب فهو عنده كلام فارغ ، ومع ذلك فانه يحبذه الآن مادام فيه مصلحة ، لكنه يعلن فى الوقت نفسه أن هذه الوسائل البطيئة تحتاج الف سنة لتجديد العالم ، فابدأوا بأن تنسفوا لى هذا الجحيم الذى تموتون فيه كلكم ! ..

ان هدف الشركة واضح ، فهى تريد ببساطة أن تحقق وفرا من قوت العمال ، وقد استدعى « ماهوى » من مكتب الصراف الى مكتب « السيد السكرتير العام » الذى قال له ان الشركة تدرس الآن احالة والده « بون مور » الى المعاش — معاش المائة والخمسين فرنكا — ثم انتقل السكرتير العام الى موضوع آخر ، فاتهم العامل المرتبك الواقف امامه بالاهتمام بالسياسة ، ولمح الى العامل الذى يسكن

عنده والى صندوق الطوارىء ، ثم زوده بنصيحة أخيرة هى ألا « يورط نفسه » فى جنونيات ، هو الذى يعد واحدا من خيرة عمال الشركة .. وأراد « ماهوى » المذهول أن يحتج لكنه عجز الا عن كلمات متقطعة قبل أن ينسحب خارجا ..

وفى الخارج انفجر أمام « اتيين » الذى كان ينتظره :

— يالى من جبان ! .. كان يجب ان ارد ! ..



— ١١ —

ـ سيكون للشركة الاضراب الذى تريده ! ..

تقرر الاضراب فى اجتماع بخمارة « الافنتاج » دون أن يقاومه « راسنير » كما اعتبره « سوفارين » خطوة اولى مع رفضه المساهمة فيها ، وفى انتظار الصدام مر أسبوع استمر العمل فيه مستريبا وعابسا ..

ثم جاءت لحظة رج المنجم فيها هزيم رعد بعيد ، فاندفع الجميع فى وثبة من الاخاء القلق ، ورقصت أضواء المصابيح فى أيدى العمال وهم يفرون من الموت على طول الممرات ، وظهورهم منكسرة ، كما لو كانوا يتواثبون على أربع ، وهم يتساءلون دون أن يبطئوا فى الركض اين وقع هذا الانهيار الجديد ...

كانت الدعامات الخشبية قد لانت فى احد المواضع الحساسة تحت تأثير الرشح المستمر للماء ، فحدثت فى ذلك الركن من أعماق المنجم طقطقة فظيعة ، ثم وقع الانهيار ... وبعد دويه الرهيب ساد ذلك السكون العظيم الذى يتلو الفاجعة وتصاعد غبار كثيف من مكان الحادث الى الممرات ، حيث كان العمال يهبطون من كل مكان فى عماية واختناق وفزع ..

وكان السقف قد انهار فوق مسافة لاتزيد عن عشرة امتار ، فالخسارة هينة ، لكن قلوب العمال انقبضت عندما خرجت من الردم حشرجة موت ، وعاد العمال مسرعين نحو نجدة رفاقهم الذين حصرهم الانهيار فى داخل أحد الممرات ..

واقبل الصبى « ببير » وقد تخلى عن عرباته وهو يركض مكررا أن « جانلان » تحت الردم ، فانقض « ماهوى » و « زخارى » و « اتيين » على الردم فى نقمة مستميتة ، ووقفت « كاترين » و «ليدى » و « موكيت » يعولن فى رعب ... وراح العمال يلصقون

آذانهم بالردم ويكلمون ذلك المدفون الذى يرسل حشرجته المستمرة الرتيبة ويسألونه عن اسمه فلا يظفرون برد غير الانين ...

وبالمعول والجاروف اندفع العمال يهاجمون الردم حتى ظهرت لهم قدم انسان ، فتركوا عند ذلك المعاول وأخذوا يرفعون الردم بأيديهم كاشفين عن اعضاء ذلك الزميل الواحد بعد الآخر ، فلما عرفوه تنقل اسم « شيكو » على كل الشفاه ، وكان مايزال ساخنا ، وقد قصمت صخرة عموده الفقرى.. أما «جانلان» فكان مغمى عليه وقد تحطمت ساقاه ، لكن النفس يتردد فى صدره ...

وكان أبوه هو الذى حمله بين ذراعيه وسط عويل البنات ..

وقاد الحصان « معركة » موكبا تحت الارض من عربتين حملت الاولى جثة « شيكو » التى يسندها « اتيين » وجلس « ماهوى » فى الثانية حاملا فوق ركبتيه غلامه الغائب عن الوعى وقد غطى بخرقة من صوف انتزعت من أحد أبواب التهوية .. ووراء العربتين سار ذيل طويل من العمال كأنه خمسون ظلا تمشى صفا ..

وظل هذا الموكب يمشى تحت الارض نصف ساعة قبل أن يبلغ نور النهار ليجد فى انتظاره طبيب الشركة الدكتور « فندرهاغن » الذى امر فى الحال بنزع الملابس عن الميت وغسله قبل فحصه .. ثم اعلن أن رأس « جانلان » سليم وكذلك صدره ، والمسألة كلها فى ساقيه .. وخلع الدكتور بنفسه ملابس الطفل فظهر جسم صغير مسكين فى ضمور جسم الحشرة ، ملوث بتراب أسود .. وعندما غسلوه هو أيضا كان يبدو أنه يزداد نحافة تحت دعكات السفنجة ـ ذرية جنس من البؤساء ـ وظهرت الجروح فى فخذيه ...

وفى هذه اللحظة ظهر المهندس « نيجرل » والاسطى « دانسايير » وانفجر الاول فى غضب مشيرا الى ان السبب دائما هو ضعف الدعامات الخشبية فى المنجم .. ألم يكرر مائة مرة أن الامر سينتهى بأن يفقد بعض العمال حياتهم ؟ .. كيف الحال الآن ؟ ... ألم تشبعوا اذن من الكلام عن الاضراب بسبب اصرار الشركة على زيادة تدعيم سقوف الممرات ؟ .. واسوأ مافى الامر أن الشركة هى التى ستدفع ثمن اصلاح ماتحطم ! .. وياالسرور السيد المدير العام عندما يبلغه الخبر ! ..

وتكون موكب جديد سارت فى طليعته عربة من عربات العفش تحمل جثة العامل الميت ووراءها محفة تحمل الفلام الجريح ، ثم ذيل الناس .. وصعد هذا الموكب ببطء فى المرتقى المؤدى الى مجموعة المساكن ، فى غبش غروب يدفن السهل الواسع كله فى كفن ساقط من سماء غبراء كدرة !

واستقبلت النساء الموكب فى رعب ، متسائلات أمام أى بيت ستقف عربة الموت ..

وعندما وضعت المحفة امام بيت « ماهوى » ورأت امراته ابنها حيا ومهشم الساقين ومعه الطبيب ملأت دنياها صراخا ، على حين كانت صرخات اخرى تخرج فى نواح ممزق من بيت مجاور ، حيث كانت امراة « شيكو » واطفاله يبكون فوق جثته ..

وبعد ثلاثة أسابيع خرج «جانلان» من هذه المحنة أعرج ، وصرفت الشركة لاهله ـ بعد التحقيق ـ عونا مقداره خمسون فرنكا ، كما وعدت بالبحث عن عمل خارج المنجم لذلك الاعرج الصغير .. !

واقترب اول ديسمبر وهو الموعد الذى كانت الشركة قد حددته لتنفيذ تهديدها بتخفيض الاجور ، وفى هذه الاثناء حجز « شافال » حبيبته « كاترين » فى بيته ـ فى نوبة من نوبات غيرته من « اتيين » الذى ينام معها تحت سقف واحد ـ واعلن انه هجر العمل فى منجم « فورو » الى عمل آخر فى منجم « جان بارت » الذى يملكه السيد « دينولان » وأنه أخذ معه « كاترين » أيضا .. وفى البداية تكلم « ماهوى » عن عزمه على الذهاب الى بيت « شافال » فى « مونتسو » لصفعه ولاعادة الابنة الضالة بركلات فى مؤخرتها ، ثم اذعن للواقع قائلا ان من المستحيل قمع البنات وأن الحل الحسن هو انتظار الزواج فى هدوء .. اما الام فلم تأخذ الامر هذا المأخذ السهل وانطلقت تحدث « اتيين » الذى كان يسمعها فى صمت وهو شاحب الوجه :

ـ انا نفسى كنت حبلى عندما تزوجنى ابوها ، لكنى لم اهرب من بيت اهلى ، فانها لقذارة ان تحمل البنت أجرها قبل الاوان الى رجل لاحاجة له بأجرها .. كانت حرة تذهب كل مساء الى حيث تريد فلماذا لم تنتظر حتى أزوجها بنفسى بعد ان تكون قد عاونتنا فى هذا

الضيق ؟

كانت المراة تتكلم وابنتها الصغيرة الحدباء تؤمن على كلامها بهزات مؤيدة من راسها ، بينما تتساءل الام كيف يعيش سبعة اشخاص ـ اذا لم تحسب الرضيعة ـ على فرنكات الاب الثلاثة ؟ .. أليس خيرا من هذا أن تقذف الاسرة كلها بنفسها جماعة الى القتال ؟

لكن زوجها تدخل فى الكلام قائلا بصوت يمزقه الانهيار المعنوى :

ـ أى جدوى من تعذيب نفسك ؟ لعل لنا مخرجا !

فرفع « اتيين » راسه وقال وعيناه تائهتان فى رؤياه :

ـ آه ! .. لقد آن الاوان ! ... لقد آن الاوان ! ...



-١٢-

انفجر الاضراب فى صباح يوم الاثنين ، وكان ذلك اليوم موعد وليمة الغداء التى يقيمها « آل هينبو » للسيد « جريجوار » وزوجته وابنته « سيسل » والتى كان غرض « مدام هينبو » منها ان يتم الانسجام بين « سيسل » والمهندس « بول نيجرل » والتفاهم على زواجهما ..

وكان العمال قد احتفظوا بهدوئهم عندما طبقت الشركة تعريفة الاجور الجديدة ولم يتقدم احد منهم بأى مطلب فى يوم صرف الاجور فى نهاية فترة الخمسة عشر يوما ، فاعتقدت الشركة أن التعريفة الجديدة قد قبلت ، ولذلك كانت الدهشة عظيمة عندما صدر فى ذلك الصباح من العمال اعلان الحرب ، الذى كان تكتيكه فى هذه المرة يشير الى قيادة فعالة ..

وفى الساعة الخامسة أيقظ « الاسطى دانسايير » السيد « هينبو » المدير العام ليخطره بأن عمال منجم « فورو » جميعا لم ينزلوا للعمل وان المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال تنام نوما عميقا وقد اغلقت نوافذها وأبوابها ، ثم جاء رسل يهرعون وانهالت البرقيات ، واتضح للمدير العام قبل مشرق الصبح أن التمرد لم ينحصر فى ذلك المنجم وحده بل انتشر فى مناجم « ميرو » و « كريفكور » و « مادلين » ، اما فى منجمى « لافكتوار » و « فيترى كانتل » فقد نزل ثلثا العمال فقط ، وانفرد منجم « سان توماس » بنزول جميع عماله ...

ونشط « هينبو » فاملى برقيات الى محافظ الاقليم والى مديرى الشركة الكبار سائلا عن الاوامر والتعليمات ، كما اوفد « نيجرل » للقيام بجولة فى المناجم المجاورة ، للحصول على معلومات دقيقة .. وظل مثابرا على نشاطه حتى خطرت له الوليمة فجأة ، وعندما أوشك ان يرسل الحوذى لاخطار « آل جريجوار » بضرورة تأجيل الزيارة ، اوقفه نقص فى الارادة !

هو الذى جهز ميدان حربه مع العمال بدقة عسكرية وببضع عبارات موجزة ، تردد أمام قرار صغير قد يكون لزوجته فيه رأى آخر ! ..

وعندما صعد اليها حيث كانت تتزين فى مخدعها بالطابق العلوى قالت له فى حزم حاسم :

ـ مادخل اضرابهم بنا ؟ .. اننا لن نصوم ، أليس كذلك ؟! ..

واصرت على اقامة الوليمة فى موعدها ، اصرار من يعلم أن كلمتها هى العليا فى هذا البيت .. !

كانت ضيقة النفس دائما بهذا الزوج الذى ترى أنها فجعت فيه .. عندما تزوجها كانت هى ابنة أحد أساطين صناعة الغزل فى « آراس » وكان هو شابا فقيرا حديث التخرج من مدرسة المناجم ، فتنقلت معه فى عدة شركات كان تقدمه فيها بطيئا ، لقلة طموحه .. وقد خانته من قبل مرتين فى مدن أخرى ، مرة اولى بدون علمه ، ومرة ثانية بعلمه .. وكانت تتهمه الآن بأنه ضحى بها عندما جاء بها الى هذا البلد القفر الموحش فى اقصى الشمال ، بفحمه وسواده وعماله الذين يقرفونها ويخيفونها ، من اجل مرتبه البالغ اربعين الف فرنك .. ولم يهدىء من ثائرتها فى السنتين الاخيرتين الا وصول « بول نيجرل » الى « مونتسو » .. وكانت امه الارملة تعيش فى « أفينيون » على دخل هزيل ، وقد قنعت طويلا بالخبز والماء كى تدخله مدرسة الهندسة العليا ، ثم جاء به عمه ـ زوجها ـ ليعمل مهندسا فى منجم « فورو » وصارت له فى بيت عمه و « عمته » حجرة خاصة ، فهو « ابن البيت » ... وببساطة خانتمعه زوجها ، وهى الآن بعد سنتين من بدء العلاقة تبحث له عن زوجة غنية مثل « سيسل جريجوار » لا لشىء الا لتبعد عنها اشتباه زوجها فيهما !

ونزل السيد المدير العام من عند زوجته التى كان يجد من نفورها الصريح منه منذ سنوات مايردعه اذا همت بها رغبته ، فلها مخدعها واستقلالها ، فالتقى بابن أخيه عائدا من جولته التفتيشية ، وعلم منه أن العمال سيوفدون اليه مندوبين للتفاهم ، وقبل أن يضيف المهندس شيئا كان صوت « المدام » قد نادى ، من فوق ، فى طراوة :

- اهذا انت يابول ؟ اصعد باخبارك عندى ! ..

وجلس المدير فى الدور الارضى يفض البرقيات وينتظر الضيوف

وعندما جاء الضيوف كانوا يحملون معهم تفاؤلهم بانتهاء ذلك الاضراب فى هدوء ، لكن « دينولان » عندما اقبل بعد قليل كان قلقا متوجسا ، وقد جاء من منجمه البعيد على حصان راكض :

- كل العمال عندى نزلوا هذا الصباح لكنى لست مطمئنا ، فان المسالة يمكن ان تتسع ... اين انتم من المسألة ؟

وعلى المائدة قالت « المدام » لضيوفها بابتسامة :

- ستعذروننى ! ... كنت اريد أن أقدم لكم محارا ، من الشحنة التى تصل كل يوم اثنين الى « مارشيين » وكانت نيتى ان ارسل الطباخة بالعربة لشرائه ، لكنها خافت ان تضرب بالحجارة ! ...

كانت قاعة الاكل فاخرة تتلألأ فيها الفضية ، وكان الاكل نفسه ممتازا ، لكن المرح المفتصب الذى كان يدور حول المائدة كان يخفى وراءه خوفا مكتوما تفضحه نظرات خاطفة غير ارادية تلقيها العيون نحو الطريق الظاهر من وراء النوافذ ، كما لو ان عصبة من الجياع - جوع الموت - تتربص فى الخارج بالمائدة ..

وبينما كانت الاطباق المتتابعة توضع وترفع ، دخل « الاسطى دانساير » وقال ان وفد العمال اقبل ، وقالها وهو واقف على بعد خطوات من المائدة ، ثم خرج ..

وبين الاوراق التى تلقاها المدير رسالة حرص على ان يقرأها بصوت عال على ضيوفه ، وكانت من العامل « بييرون » وكان يقول فيها بعبارات مليئة بالاحترام انه يجد نفسه مضطرا الى الاضراب مع الرفاق حتى لايسيئوا معاملته ، وانه لم يستطع ايضا أن يرفض عضوية الوفد ، رغم استنكاره لهذه الخطوة ..

وكان راى المدير ان العمال سيفشون الحانات فى أسبوع من الكسل ، او اسبوعين على الاكثر ، مثل المرة السابقة ، ثم يقرصهم الجوع فيعودون الى المناجم صاغرين .. لكن « دنيولان » المتشائم هز راسه قائلا ان العمال فى هذه المرة يبدون اكثر تنظيما ، وعندهم صندوق الطوارىء ..

قال المدير العام فى وقار :

- ثلاثة آلاف فرنك لن تذهب بهم بعيدا ! .. وزعيمهم - الذى اظن انه زعيمهم - عامل كفء فى الحقيقة ، وسيحزننى أن أسلمه بطاقته فى ساعة فصله ، كما سبق لى أن فعلت مع « راسنير » .. ومهما يكن من امر فان نصف الرجال سيعودون الى العمل خلال اسبوع ثم لاتمر خمسة عشر يوما حتى يكون الآلاف العشرة تحت الارض !

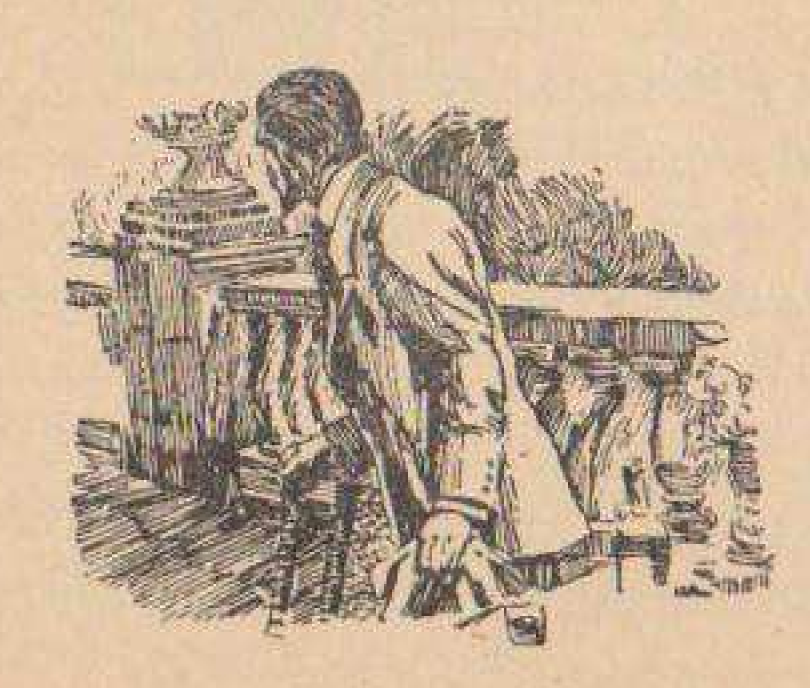
وأمام الرعب المسيطر على « دنيولان » خطرت للمدير فكرة : ان الاضراب قد تكون فيه مصلحة ، فاذا خرب منجم هذا الجار صار من السهل على الشركة أن تشترى منه ملكية منجمه بسعر منخفض ! .. هذه هى الطريقة المثلى لاستعادة رضاء المديرين الكبار عنه بعد الاضراب ، فهم منذ سنوات يحلمون بامتلاك منجم هذا الرجل الذى يابى ان يبيعه ! ...

وكانوا قد وصلوا الى القهوة عندما جاءت الوصيفة مذعورة تجرى :

- سيدى ! ... سيدى ! ... هاهم ! ...

- ادخليهم فى الصالون ..

ونهض بعد هنيهة متثاقلا ، وظل ضيوفه حول المائدة صامتين وآذانهم مرهفة الى أصداء همهمة الرجال فى الصالون القريب .. فى انتظار النتيجة !



- ١٣ -

كان من راى « اتيين » أن يتولى « ماهوى » الكلام لما له من مكانة عند الشركة وعند زملائه ، لكن الرجل تردد وهو مأخوذ :

— لكنى لن أعرف ابدا .. سأقول سخافات ..

— ستقول ماتحسه ، وسيكون هذا حسنا جدا ..

وفى الموعد قصد الاربعة « ماهوى » و « اتيين » و « بييرون » و « ليفاك » حانة « راسنير » حيث كان مندوبو المناجم الاخرى يتوافدون فى جماعات صغيرة ، حتى تم اجتماع اعضاء الوفد العشرين ، فحددوا شروطهم التى سيعارضون بها شروط الشركة ، ثم دخلوا « مونتسو » فى هدوء ..

وأدخلتهم الوصيفة فى صالون بيت المدير ، فظلوا واقفين وقد ملأ الاثاث نفوسهم بالاحترام ..

ودخل المدير العام عليهم :

— آه !.. ها انتم !.. انتم تتمردون على ما يظهر ..

وقطع كلامه كى يضيف فى صلابة مؤدبة :

— اجلسوا ، فما اطلب شيئا احسن من التفاهم فى الكلام !

بعضهم جلس ، لكن الآخرين صدهم الحرير الموشى ، ففضلوا أن يظلوا واقفين ..

وساد سكون كان الرجل خلاله يحاول أن يتعرف على هذه الوجوه .. عرف « بييرون » الذى كان يتوارى فى الصف الاخير ، ثم توقفت نظرته عند « اتيين » الذى كان جالسا فى مواجهته :

— لنر ماذا عندكم ؟..

كان يتوقع أن يكون المتكلم هو « اتيين » فأدهشه أن يرى «ماهوى» يتقدم .

— كيف!.. انت ؟!.. العامل الكفء الذى كان دائما مثال التعقل!..

احد قدماء عمالنا من أهل مونتسو !.. الذى تشتغل أسرته « تحت » من اول ضربة معول !.. آه .. انى ليحزننى يا « ماهوى » ان تكون انت على راس الساخطين !..

بدأ « ماهوى » كلامه بصوت متردد :

— انما اختارنى زملائى ياسيدى المدير لانى هذا الرجل الهادىء الذى لا مأخذ عليه .. وان هذا يجب ان يثبت لك ان حركتنا ليست تمردا صاخبا سىء النية .. نحن نريد العدالة فقط .. تعبنا من الموت جوعا ..

لكن صوته لم يلبث ان توطد ، فرفع عينيه بعد أن كانتا منكسرتين واستمر فى كلامه وهو ينظر الى المدير العام :

— من رأينا أنه حان الوقت لاصلاح الامور .. حتى يكون لنا على الاقل خبز فى كل الايام !.. انت تعرف جيدا اننا لا نستطيع أن نقبل نظامكم الجديد .. واذا كان صحيحا اننا لا نحسن عملية الدعم بالخشب فان السبب فى اننا لا نعطى هذا العمل كفايته من الوقت هو ان يوميتنا فى هذه الحالة ستنقص زيادة على نقصانها .. هى التى لا تكفى الآن قوتنا .. ادفعوا لنا أكثر ونحن نشتغل احسن .. ولا يوجد هناك حل آخر ممكن .. لكنكم ابتكرتم شيئا اخر لا يمكن أن يدخل رءوسنا ، فخفضتم سعر العربة وزعمتم انكم تعوضون هذا التخفيض بدفع اجر العمل فى التدعيم على حدة .. ولو أن هذا كان صحيحا لكان سرقة منا ، لان العمل فى التدعيم سيأخذ منا وقتا اطول .. لكن ما يحنقنا ان هذا ليس صحيحا ، فالشركة لا تعوض شيئا بالمرة ، انها فقط تضع ببساطة سنتيمين عن كل عربة فى جيبها .. هاك الحقيقة !

وارتفعت همهمات من المندوبين الآخرين :

— اجل !.. اجل !.. هى الحقيقة ..

واشار المدير اشارة عنيفة دلت على انه يريد ان يقاطع ، لكن « ماهوى » قطع الكلام على المدير .. الآن كان قد اندفع وطاوعته الكلمات .. كانت تصحو فى اعماقه اشياء متراكمة لم يكن يعرف حتى انها موجودة هناك .. كان « يقول » بؤسهم ، كلهم ، العمل القاسى، الحياة الخشنة ، صراخ النساء والاطفال من الجوع فى البيت ،

الغرامات ، التخفيضات .. ثم ختم كلامه :

ــ لذلك ياسيدى المدير جئنا نقــول لك انه مادامت المســألة مسألة موت فنحن نفضل ان نموت من عدم العمل ، لان التعب سيكون بذلك اقل !.. لقد تركنا المناجم ولن نعود الى النزول فيها الا اذا قبلت الشركة شروطنا .. هى تريد ان تخفض أجر العربة وان تدفع اجــر عملية التدعيم على حدة ، اما نحن فاننا نريد أن تظل الاوضاع كمــا كانت ، ونريد أيضا ان تزاد خمسة سنتيمات عن كل عربة فى أجرنا والآن عليك انت أن تحدد موقفك من العدالة ومن العمل ..

وارتفعت اصوات كثيرة :

ــ هو هذا .. لقد قال فكرتنا جميعا .. نحن لا نطلب الا الحق ..

وآخرون وافقوا بهزة من الرأس دون ان يتكلموا ، واختفى ســحر الحجرة الفاخرة ولم يعودوا يحسون السجادة الثمنية تحت أقدامهم ، فهم يسحقونها تحت أحذيتهم الثقيلة ..

قال المدير عندما عاد السكون :

ــ دعونى ارد !.. قبل كل شىء ليس صحيحا أن الشركة تكسب سنتيمين عن كل عربة .. لنر الارقام ..

وتبعت ذلك مناقشة غامضة حاول المدير خلالها أن يضرب بعضهم ببعض ، فنادى « بييرون » الذى تملص من الحديث بصعوبة .. ثم ترك مسألة اجور العربات ووسع الموضوع فجأة :

ــ لا !.. اعترفوا بالحقيقة !.. انتم تطيعون تحريضات كريهة !.. ولست فى حاجة الى اعترافات احد كى أعلم هذا !.. انى أرى جيدا انهم قد غيروكم ، أنتم يامن كنتم فيما مضى مثال الهدوء !.. اليس كذلك !.. الم يعدوكم بمزيد من الخبز ، وقيل لكم أن دوركم قد جاء فى الســيادة ؟

كان يتكلم وهو يحدق فى « اتيين » محاولا أن يستفزه ويخرجه من سكوته ، فاشتبك به الشاب والتقطا وحدهما من تلك اللحظة حبــل الحديث .. قال الشاب فى هدوء ان الامر متوقف الان على موقف الشركة ، فرد عليه المدير فى خشونة :

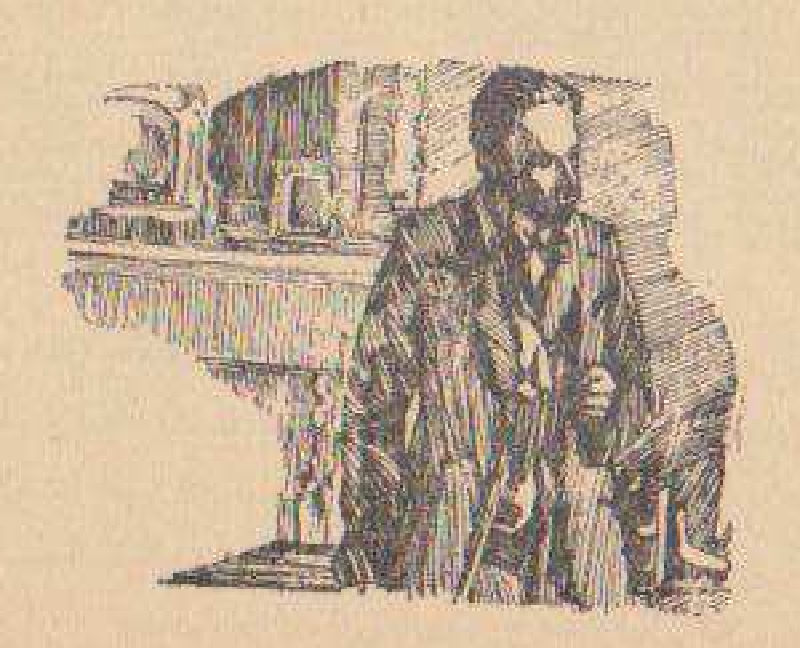
ــ انت صديق « راسنير » طريد الشركة ، ذلك الاشتراكى !.. وهو بكل تاكيد الذى دفعك الى انشاء صندوق الطوارىء هــذا ..

كنا نتحمله راضين لو انه كان نوعا من الادخار ، لكننا نشتم منــه سلاحا ضدنا .. هو فى حقيقته احتياطى لدفع نفقات الحرب .. ومن واجبى ان اضيف ان الشركة تنوى ان يكــون لهــا اشراف عــلى ذلك الصــندوق ..

ابتسم العامل الشاب عند الجملة الاخيرة ، وأجاب ببساطة :

ــ هو اذن مطلب جديد ! .. لماذا تشغل الشركة نفسها بنا الى هذا الحد ؟!.. ان مانرغب فيه هو أن تتركنا فى حالنا وتتصرف هى فى الواقع بعدل وتعطينا حقنا ، بدلا من لعب دور العناية الالهية !.. حقنا ، ربحنا الذى توزعه الشركة على نفسها !.. أهو شىء شريف ان تترك الشركة عمالها فى كل أزمة يموتون من الجوع ، لانقاذ حصص المساهمين ؟ .. مهما قال السيد المدير فان النظام الجديد هو تخفيض متنكر للاجور ، وهذا هو ما يثيرنا .. أن تقتصد الشركة من مصروفاتها عندما تريد التوفير على حساب العامل وحده .. !

ــ آه !.. هانحن وصلنا !.. كنت انتظره ، هذا الاتهام بتجــويع الشعب والتنعم بعرقه !.. كيف يسعك ان تقول سخافات كهــذه ، انت الذى ينبغى أن يعرف المخاطر العظيمة التى تتعرض لها رءوس الاموال فى الصناعة ، فى المناجم مثلا ؟ .. اتعتقدون أن الشركة لاتخسر كما تخسرون فى الازمة الحالية ؟ .. لكنكم لاتريدون أن تسمعوا ، لاتريدون أن تفهموا ! ..



- ١٤ -

بشجاعة هادئة ، بثقة مطلقة ، بايمان دينى الطابع والجوهر ، كانوا شعبا صغيرا وعد بعصر العدالة .. فهو على استعداد لاحتمال العذاب من أجل غزو الهناء الموعود ، وما من شكوى سمعت فى مواجهة الايام الفظيعة التى كانت تبدأ ، بل كانوا يكادون يلمسون العصر الذهبى المأمول ، ويواجهون الواقع المر بالامل وبازدراء مبتسم ، وهذا الايمان كان بدلا من الخبز يدفء البطن ، وحتى دوار الجوع كان يتشكل فى صورة نشوة روحية طامعة فى حياة أفضل ، فى انسانية ارقى ، تلك النشوة القديمة فى الكائن البشرى التى كانت تلقى الى السباع قديما بالشهداء ..

وكان مندوبو العمال قد قالوا للمدير العام عندما وقف ليصرفهم فى نهاية المقابلة الفاشلة فى صالون بيته :

ـ اذن يا سيدى هذا هو ما تجيب به ٠٠ سنذهب الى الاخرين فنقول لهم انك ترفض شروطنا ..

هنا صاح المدير :

ـ أنا يا رجل يا طيب ؟! ٠٠ أنا لا أرفض شيئا ! ٠٠ أنا أجير مثلكم يتلقى اوامر ، ومهمتى الوحيدة هى السهر على حسن تنفيذها .. انما قلت لكم ما اعتقدت أن من واجبى ان أقوله لكم ، لكنى لاأعطى لنفسى حرية اتخاذ قرار ٠٠ وسوف أخطر الادارة العامة بمطالبكم ، ثم أنقل لكم الرد ٠٠

كان قد عاد الى الكلام بلهجة الموظف الكبير المهذب قليل السلطة ، فنظروا اليه فى ريبة متسائلين من أين جاء هذا الالعبان واية مصلحة يمكن أن تكون له فى الكذب ، وما يمكن أن يسرقه بوضع نفسه بينهم وبين اصحاب العمل الحقيقيين !.... لعله من أهل الدسائس والمناورات ! ٠٠٠٠ وقالوها له فى وجهه ٠٠٠٠قال له « اتيين »المسيطر على أعصابه :

ـ يؤسفنا ألا نتمكن من الدفاع عن قضيتنا بأنفسنا ، حتى نفسر للمسئولين اشياء كثيرة لابد ان تفوتك اذا توليت انت الكلام.. لو اننا كنا نعرف فقط لمن نتوجه ؟

ـ هكذا !.. مادمتم لاتثقون بى فعليكم ان تذهبوا بأنفسكم الى هناك ..

هناك أين ؟ ٠٠ لابد أن ذلك « الشىء » الذى يضغط عليهم موجودفى باريس .. ماذا يكون ؟ من يكون ؟ من الاله المجهول المقعى فى محرابه والذى يحسون ثقله من بعيد على عشرة آلاف نفس بشرية ؟ ماهذه القوة التى تواجههم من وراء المدير وهو يتكلم ، مختبئة وهى توحى اليه وحيها ؟ ٠٠

وخرجوا فى شىء من التراخى ، وعاد المدير الى حجرة المائدة ليجد ضيوفه جامدين حيث تركهم أمام الكئوس .. ولخص لهم الموقف بكلمتين ، وقيل أن من المدهش حقا ألا تكون هناك قوانين تحرم على العمال ترك عملهم !.. واخيرا نادت زوجة المدير العام الخادم وقالت له :

ـ « هيبوليت » ! قبل أن ننتقل الى الصالون افتح نوافذه كلها وغير الهواء !!..

واستمر الاضراب فجاء محافظ « ليل » وملأ رجال الجندرمة الطرقات ، ثم انسحب الجميع عندما لمسوا هدوء المضربين ، الذين قاطعوا الحانات وعاونتهم نساؤهم فى التدبير ، وحتى عصابات الغلمان كانت تتبادل الصفع والعبث بغير ضجة ، وفى حكمة من يفهم الموقف .. وكان « اتيين » قد وزع الآلاف الثلاثة من الفرنكات على البيوت، كما وصلت من جهات متعددة مئات من الفرنكات جمعت بالاكتتاب ، ثم نضبت بعد ذلك الموارد وظهر شبح الجوع ..

وتعرض الايمان والثقة والشجاعة لامتحان الجوع ، وكان التاجر « ميجرا » قد وعدهم بقرض لكنه غير رايه بايعاز من الشركة التى يتلقى منها الاوامر ..

وتزايد سقوط نديف الثلج وتناقصت اكوام فحم التدفئة وصار النوم بدون عشاء قاعدة متبعة ..

وفى أحد ايام الاسبوع الثالث جلس « اتيين » فى صالة البيت مع

امرأة « ماهوى » التى ترضع ابنتها .. كان سـعيدا بدور الزعيم الشعبى وكان يحلم بالنيابة والمنبر وخطبة واحدة يلقيها فتصرع كل الاعداء ، أول خطبة يلقيها عامل فى برلمان !.. وفجاة ظهـرت « كاترين » لاول مرة منذ هربت مع « شافال » وقالت انها جاءت من اجل الاطفال بسكر وبن ، واخرجت من جيوبها رطل بن ورطل سكر ووضعتهما فوق المائدة .. كان العمل مستمرا فى منجم « جان بارت » فلم ينقطع اجرها ، وكانت هذه هى الطريقة التى فكرت فيها لمساعدة أهلها .. لكن امها استقبلتها بخشونة :

ـ اذهبى فى الحال واعتبرى نفسك سعيدة لانى مشغولة ، والا كنت ناولتك ركلة بقدمى فى مكان ما !

واذا بهذا التهديد يتحقق فجاة ، اذ تلقت مؤخرة الفتاة ركلة قدم اذهلتها وأوجعتها ، لكن الركلة جاءتها من « شافال » الذى كان قد دخل وراءها فى وثبة وهو هائج بالغضب :

ـ آه ياقذرة ! تحضرين « له » البن بنقودى !..

لاذت الفتاة بركن فسقط غضب رجلها الغيران على الام :

ـ مهنة جميلة ، حراسة البيت بينما تتمتع ابنتك البغى بوصال حبيبها السافل الذى يسكن عندك !

وقبض على معصم الفتاة وهزها ثم جرها الى الخارج ، وعند الباب التفت مرة اخرى نحو أمها التى تسمرت فى الكرسى ناسية ان تدخل ثديها تحت ثوبها ، ونظر فى الثدى الكبير المتدلى كضرع بقرة قوية ، وصاح :

ـ عندما لا تكون البنت موجودة فان الام هى التى تقوم بالمهمة .. هيا ، اربه لحمك !..

وصار الشابان مرة اخرى وجها لوجه، فتوسلت الفتاةالى صاحبها الشرس واخذت بنفسها يده لتسحبه ، هاربة دون ان تتلفت ..

لم يكن الوقت مناسبا لاثارة معركة بين العمال ، فكظم « اتيين » غضبه وغادر البيت بعد قليل فى اسى اسود كحزن الليل المثلج الذى مشى فيه مطرقا وهو يشعر ملء نفسه بالمسئولية الكبيرة التى يحملها ..

ماذا تكون نهاية هذا الصراع المرير بين الجياع المفلسين وقوة

الشركة ؟..

وماذا يكون المصير اذا لم يأتهم عون واذا الجوع هزم الشجعان؟..

ثم استرد سكينة نفسه واصراره امام منظر منجم « فورو » الذى مر به ، وعاوده ايمانه بالنصر القريب ..

ودخل الخمارة ، وقال لصاحبها :

ـ لابد مهما يكن من شىء ان يستمر الاضراب ، ولذلك فانى سأكتب الى « بلوشار » وأدعوه الى الحضور لدراسة الموقف ..



- ١٥ -

تحددت الساعة الثانية من يوم الخميس موعدا للاجتماع الذى يخطب فيه « بلوشار » فى صالة الارملة « دزير » التى كانت قد ضاق صدرها بالبؤس النازل بالفحامين « أطفالها » كما أثارها ما نتج عن البطالة من خلو صالتها من الزبائن ، منذ حبس السكيرون أنفسهم فى البيوت خشية الخروج على كلمة النظام ..

وكانت الخمارات كلها قد خلت من روادها ، حتى ماخور «البركان» تعطلت تساؤه وبار سوقهن رغم تخفيض السعر من نصف الفرنك الى ربعه ، كما شمل قلب البلد كله حداد حقيقى ..

وكان القانون ينص على ان تكون الدعوة الى الاجتماعات صادرة من صاحب المكان الذى تعقد فيه الجلسة ، فتطوعت المرأة « دريز » بارسال الدعوات بنفسها الى نحو خمسين عاملا من مندوبى المناجم .. وفى الساعة التاسعة صباحا توجه « اتيين » الى « الصالة » وتفقدها بعد ان استبدلت بمنصة الموسيقيين فيها منضدة وثلاثة كراسى فى الصدر واصطفت فى فراغها المستطيل دكك الجلوس .. ثم ظهر « راسنير » و « سوفارين » الذى كان قد اشتغل « وردية الليل » مع الميكانيكيين الذين لم يشتركوا فى الاضراب ، وقد اقبل الان ببساطة مدفوعا بالفضول وحده ، على حين كان دافع « راسنير » هو القلق من أن تتطور مناقشة استمرار الاضراب الى انضمام جماعى الى « الانترناسيونال » التى سيخطب رجلها الساحر . وهو يرى أن مشكلة العمال الحقيقية ليست مع السياسة والحكومة ، وأن المهم فى رأيه هو ان يظفر عامل المنجم بمعاملة احسن ، وقد اشتغل « تحته » عشرين سنة وعرف البؤس والتعب فأقسم ان يظفر لهؤلاء التعساء الباقين هناك بنصيب أوفى من طيب العيش ..

وكان يتكلم فى ثقة وهو يعلن لصديقه انه يحس ان العمال لن يحصلوا على شىء من هذه الافكار ، بل سيكون مصيرهم أسوأ .. ان

العامل سوف يجبره الجوع على العودة الى عمله وعندذاك ستستبد به الشركة ، وهذا هو مايريد أن يمنعه .. أليس من الغباء أن يعتقد احد ان فى وسعه تغيير العالم بين يوم وليلة ، بضربة واحدة ، واقتسام خيرات الدنيا كما تقتسم تفاحة ؟.. ربما لزم لتحقيق ذلك الاف والاف من السنين .. انه لا يؤمن بالمعجزة .. والعقل يقضى بالمطالبة بالاصلاحات الممكنة وانتهاز كل الفرص لتحسين مستوى العمال ..

لكن « اتيين » كان قد هاج وارتعد بالغضب ، على حين كان « سوفارين » جالسا على أحد الكراسى وهو يتفرج فى هدوء على المناقشة الحادة ، بعد أن لف سيجارة ، وعلى شفتيه ابتسامة ..

والان صار « اتيين » الثائر هو الذى يشرح فى انفعال شديد وجهة نظره .. هل نعقد أذرعتنا وننتظر اذن ، بينما الناس يأكل بعضهم البعض الى نهاية العالم مثل الذئاب !.. يا لها من طريقة سهلة !.. لا !.. ان التدخل واجب ، والا خلد الظلم فى الدنيا .. ان السياسة لا يمكن فصلها عن المسألة الاجتماعية ..

وكان الثالث يسمعهما وهو لا يرى فيهما - المعتدل والثورى - أكثر من صورة أخرى من صور اصطراع المذاهب ، عندما يندفع مذهب منها نحو المبالغة الثورية فيدفع المذهب الاخر الى اصطناع الحذر والاناة ، ويندفع الاثنان بالرغم منهما الى مدى أبعد من افكارهما الحقيقية ، فى حتمية لا اختيار فيها لصاحب المذهب ..

وكان « اتيين » يقول فى ثورة :

- انت اذن تغار منى ؟..

وكان « راسنير » يجيبه :

- اغار من ماذا ؟.. انى لا أتخذ وقفة الرجل العظيم !.. ولا انشىء فرعا للانترناسيونال فى مونتسو لكى أكون سكرتيره !.. انت لا تعنيك الانترناسيونال فى شىء ، وكل ما تطمع فيه هو ان تكون على راسنا .. ان تغدو السيد الذى يراسل « المجلس الاتحادى للشمال » المشهور !

فيقول « اتيين » وهو يرتعد من الغيظ :

- مادمت لا تحتمل أحدا الى جانبك فانى منذ الان سأتصرف

وحدى ، وسيتم الاجتماع حتى اذا لم يحضر « بلوشار » وبالرغم منك سينضم الزملاء !

فيرد « راسنير » عليه :

ـ سأحضر الاجتماع وأتكلم وأمنعك من آن تدير رءوس أصدقائى واوضح لهم المصالح الحقيقية .. وسنعرف اينا يتبعون ، انا الذى يعرفونه من ثلاثين سنة او انت يامن قلبت كل شىء عندنا فى أقل من سنة .. ان المسألة الان هى من يستحق الاخر ؟! ..

وخرج وصفق البـــاب وراءه فتوجــــه « اتيين » المنتفض الى « سوفارين » الهادىء واتكأ على المنضدة من الناحية الاخرى بعد أن جلس ، وسأله :

ـ قل لى ماذا كنت تفعل لو كنت فى مكانى ؟ .. الست على حق فى تفضيل الحركة والانضمام الى تلك الجمعية ؟

وفى هذه المرة أيضا لم يرد بأكثر من كلمته المفضلة :

ـ سخافات ! ..

وتوقد فى عينيه لهب محموم ..

وتقبضت يداه الرقيقتان على حافة المنضدة حتى كادتا تحطمانها ، وهو يرى الحل الوحيد صورا بشعة لخراب العالم ..

ثم انصرف ..

وبدا مندوبو العمال يظهرون فى توجس من جواسيس الشركة ، ثم ظهر « راسنير » وجمــاعة من الهازئين فى طليعتها « زخارى » و « موكيــه » واخــذوا يشربون البيرة وهم يسخرون من زملائهم الجادين .. واخيرا ظهر « بلوشار » المنتظر فى عربة يجرها حصان لاهث ، ودخل القاعة وهو يحمل تحت ذراعه صندوقا صغيرا من الخشب الاسود ..

وفى الحال تكونت هيئة المكتب وتمت الموافقة على اختيارها برفع الأيدى ، واحتلت الهيئة الثلاثية مكانها فى الصدر برئاسة «بلوشار» وعضوية « ماهوى » و « اتيين » ودق الرئيس المنضـــدة بقبضته طالبا الانتباه ، وشـــكرهم على حسن استقبالهم ثم أعطى الـكلمة للمواطن « راسنير » الذى كان يلح فى طلبها ..

وواجه الخمار المعارضة التى كان يحسها فلم يهاجم الاستمرار

فى الاضراب أو ينادى بالتفاهم مع الشركة ، لكنه جعل همه ان ينال من اصرار العمال ويريهم الموت جوعا رأى العين ، فتساءل عن الموارد التى يعتمد عليها انصار المقاومة .. وعندما قوبل بصمت بارد حمله تيار الغضب فتنبأ لهم بالشقاء اذا تركوا رءوسهم تديرها تحريضات خارجية ، فهبت القاعة الا اقلية صغيرة تريد أن تمنعه من قول المزيد ، ولم يعد الهدوء الا بعد ان قرر المجتمعون سحب الكلمة منه .. وهنا انبرى « بلوشار » يرسم الكتدرائية الضخمة لعالم المستقبل والنصر القريب الحاسم ـ الذى كان يتوقع حدوثه قبل مرور ثلاث سنوات ـ وتكلم عن الاضراب فقال انه من ناحية المبدأ لا يقره ، فهو وسيلة شديدة البطء ووطأتها على العامل ثقيلة ، لكنه فى انتظار ما هو أحسن ، وعند الضرورة ، لا يمانع فيه .. وعندما رأى الاقتناع العام ناطقا فى الوجوه أخرج من صندوقه بطاقات العضوية .. لكن عملية توزيعها لم تكد تبدأ حتى فتح الباب فجأة وملأته المرأة « دزير» ببطنها وصدرها الهائلين وهى تقول بصوت راعد :

ـ الصمت ! .. الجندرمة ! ..

وما ان قالتها حتى حدث اضطراب فى القاعة لم يتم معه شىء ، لا التصويت على الانضمام ولا الموافقة على الاستمرار فى الاضراب .. لكن الرئيس طلب فى عجلة خاطفة ان يتم التصويت فى الحال برفع الأيدى ، فارتفعت بعض الأيدى ولم يرتفع بعضها الآخر وصاح المندوبون معلنين أنهم ينضمون باسم الزملاء الغائبين .. وبذلك صار عمال الفحم فى « مونتسو » البالغ عددهم عشرة آلاف ، أعضـــاء فى الانترناسيونال ثم تسلل الحاضرون من باب المطبخ الى مخـزن الوقود ، وكان « راسنير » اول من هرب ..

- ١٦ -

فى بداية يناير القاسية زاد البؤس رغم أن أربعة الاف فرنك وصلت من لندن من المكتب الرئيسى للأنترناسيونال فلم تكف الخبز وحده أياماً ثلاثة ، ثم ضاعوا فى برد الشتاء وغاصوا فى رعدة الجوع وأحسوا انهم انعزلوا عن العالم ..

كان قد مر شهر على بداية الاضراب لم تبق خلاله فى بيوتهم آنية مطبخ او قطعة اثاث صالحة للبيع ، وحاصرتهم شائعة تقول ان الشركة مستعدة للتفاهم اذا خطا مندوبو العمال خطوة أخرى عند المدير ، لكن « اتيين » والمندوبين ترددوا فى المخاطرة بمثل هذه الخطوة من جانبهم دون أن يعرفوا نوايا الادارة .. ان الاضراب الذى اضر بالعمال قد ضيع أيضا على الشركة نفسها مئات الآلاف من الفرنكات عن كل يوم بطالة ، وكل مكنة تتوقف هى راسمال ميت ، والمهمات والادوات بدون العمال لا حركة لها ، وكبار الزبائن يتكلمون عن استيراد الفحم من بلجيكا ، والخسائر متزايدة فى ممرات المناجم المهجورة حيث تكررت الانهيارات وغمرت المياه بعض العروق وصارت حالة المناجم فى حاجة الى اصلاح قد يستغرق اشهرا قبل استئناف الانتاج ..

واخيرا انتهى هذا التردد الى قرار بالتوجه الى المدير ، حتى لا يتهموا فيما بعد بانهم رفضوا فرصة اطلاع الشركة على اخطائها ، بعد أن أقسموا ألا يتنازلوا عن شىء من شروطهم العادلة ...
وكانت مقابلة جافة فى هذه المرة ، بداها المدير « هينبو » قائلا انه لم يتلق اوامر جديدة وان الامور لا يمكن ان تتغير طالما احتفظ العمال باصرارهم على تمردهم الكريه ، ثم لان واخذ يبحث عن ارض محايدة بتنازل فيها كل من الطرفين عن قدر من صلابته .. فاذا هم قبلوا أن يكون أجرهم عن عملية التدعيم على حدة ، فان الشركة تزيد هذا الاجر بمقدار السنتيمين اللذين يتهم العمال الشركة بانها

تريد كسبهما منهم ، واضاف انه يقدم هذا العرض «على مسئوليته» لان الشركة لم تقرره ، وانه يسره مع ذلك ان يقنع « باريس » بهذا التنازل ، فلما رفض المندوبون وكرروا مطالبهم اعترف بانه مفوض للاتفاق فى الحال ، واستحثهم على القبول باسم نسائهم وأطفالهم الذين يموتون من الجوع ، فكرروا له الرفض ، وافترقوا بخشونة !
وبعد الظهر تحرك من مساكن العمال وفد آخر ، نسائى فى هذه المرة ، كان هدفه انتزاع قرض آخر من التاجر اللئيم « ميجرا » .. انتزاعه للجياع ! ..
وكن نحو عشرين امرأة من بينهن امرأتا « ماهوى » و « ليفاك » وام « فيلومين » الشيخة « لابروليه » .. وما ان اهل هذا الموكب على بلدة « مونتسو » حتى هز أهلها رءوسهم من القلق واغلقت الابواب وخبأت احدى السيدات فضيتها ! ..
وعندما عاد النساء هن ايضا بأيد فارغة نظر الرجال اليهن فى صمت ، ثم نكسوا رءوسهم .. !
كانت ليلة بلا دفء ، ولا رجاء ، ولا عشاء فلم يطق « اتيين » جو البيت الحزين الخالى من كسرة خبز ..
ـ انتظرونى ، لعلى أجد شيئا فى مكان ما !
كان قد ذكر البنت « موكيت » التى ضعف مرة امام الحاحها الشديد وضاجعها ، وتوقع ان يجد عندها الليلة خبزا ..
ودخل اطلال منجم « ريكيار » حيث تعيش مع أبيها الشيخ حارس المنجم تلك التى تقبل يديه فى فرح الخادمة العاشقة ..
وبعد خروجه من البيت بقليل كانت امراة « ماهوى » هى الاخرى قد نهضت قائلة انها ستذهب فترى .. وقصدت بيت الجار « ليفاك » أول ما قصدت ، لكن رائحة البؤس فى ذلك البيت كانت أقوى وأفدح من رائحته فى بيتها .. فذهبت ودقت باب « بيبرون » الذى كان مستكنا وراء بابه وهو يدعى المرض ، وهناك سمعت ضحكات قطعها دق الباب ، وسكونا مفاجئا .. ثم مرت لحظة قبل أن يفتح لها .. ورات الموقد عامرا والرجل فى عافية ـ وان كان يصطنع ضعف المرض ـ وشمت نكهة ارنب مطبوخ .. لابد انهم اخفوا الطبق .. لكن الفتات كان ظاهرا على المائدة حول

زجاجة نبيذ نسوا أن يخفوها هى الأخرى .. وارتدت خارجة الى الشارع الذى كان القمر من وراء السحاب يلقى عليه نورا مريبا ..

وأمام الكنيسة رأت « الاب جوار » فتوجهت اليه بتحية كلهـا رجاء وعشم ، لكنه رد تحيتها دون ان يتوقف ليصغى اليها ..

وعندما عادت الى بيتها وجدت اهلها جامدين فى اماكنهم حيث تركتهم ، الكبار والصغار ، فارتمت هى الأخرى قرب النار الخامدة .. ومر وقت ثقيل قبل ان يظهر « اتيين » حاملا فى خرقة نحو عشر من حبات البطاطس المسلوقة الباردة ، وكذب وهو يأبى أن يأكل منها زاعما انه تعشى « هناك » ، فانقض الصغار فى سعار ، واضطر الكبار أن ينتزعوا واحدة من بين يدى العجوز النهم « الموت الطيب » كى تأكلهـا « الزير » الواهنة القوى .. وهنـا خرج « ماهوى » من صمته فاقترح للغد عقد اجتماع مسائى فى الغابة للتشاور ..

وافق الشباب على الفكرة وخمدت النار وانطفأت الشمعة . وحان أن يتلمس كل طريقة الى مرقده ، فى الظلام ، فى الجوع ، فى البرد .. وكان الأطفال يبكون .. ثم ساد الصمت ..

- ١٧ -

فى أصيل ذلك المساء الكئيب كان الغلام الاعرج « جانلان » فى خرابة وراء سور يواجه بقالة عوراء فى زاوية طريق ، ومعه تابعاه اللصيقان « بيبر » و « ليدى » ، وكان متربصا فى مكمنه بالمرأة العجوز التى تكاد تكون عمياء ، صاحبة الدكان الرابضة وراء أكياس قليلة من العدس والفاصوليا سوداء من التراب ، وكان هدفه سمكة مقددة معلقة فى باب الدكان !

وكان على « بيبر » الخانع ان يطيعه فينقض على السمكة ويخطفها ، فلما خلا الطريق الساكن من المارة دفع الأعرج صاحبه المطيع الى « الشغل » :

ـ هيا يا جسور ! .. شد من الذيل ! .. واحذر ، فالعجوز عندها مكنسة ! ..

كانوا قد صاروا رعب البلد ، هؤلاء الصعاليك ..

غزوها شيئا فشيئا واكلوا سمك القنال نيئا وانتشروا كيلو مترات والتهموا توت الربيع وبندق الصيف ، ولم يلبث السهل الرحيب كله أن صار ملكهم ..

وكان الأعرج كابتن هذه الحملات الذى يقذف بذئابه الشابة على كل الفرائس ، مكتسحا حقول البصل والفاكهة ومهاجما معروضات الحوانيت .. وهو الآن بعاهته اسرع فى العدو منه قبل الحادث ، واكثر سلطة .. وقد بلغ من طغيان عصابته ان قيل فى الاقليم أن العمال المضربين أنفسهم هم الذين كونوا عصابة كبيرة منظمة للسلب والنهب !

وكان من سلطته على الصبية « ليدى » انه اجبرها ذات مرة على أن تسرق من أمها دستتين من اعواد حلوى الشعير كانت امرأة « بيرون » تحتفظ بهما فى وعاء زجاجى معروض فى نافذتها ، وعندما

ضربت بقسوة لم تعترف باسمه ولم تخنه ، فالى هذا الحد كانت ترتعد امام سلطانه .. !

ومن كل غنيمة كان « جانلان الأعرج » يحتفظ لنفسه بحق الأسد ، حتى « ببير » الذى يكبره بسنة كان يسعده أن يسلم غنيمته الى الكابتن ليحتفظ بها كلها لنفسه ، على أن ينجو من الصفع ! .. وهذا هو ما حدث فى ذلك المساء ، اذ ما كاد يخطف السمكة المقددة حتى انتزعها منه الكابتن :

ـ هات ! ..

ـ اريد منها .. انا الذى اخذتها ! ..

ـ هه ؟ ماذا ؟ .. ستأخذ منها اذا اعطيتك انا ، وليس هذا المساء على كل حال .. غدا ، ان بقى منها شىء !

وامره أن يقف امامه فى صف واحد مع البنت كما لو كانا جنديين تحت السلاح ، ومر من ورائهما قائلا لهما :

ـ الآن تظلان خمس دقائق دون أن تتلفتا ، وبعد ذلك ستذهبان الى البيت مباشرة ، واذا لمس « ببير » « ليدى » فى الطريق فانى سأعرف ذلك ، وسأصفع !

واختفى فى اعماق الظلام بخفة لا يسمع معها وقع قدميه الحافيتين ، فظل الولد والبنت جامدين خمس دقائق دون أن يتلفتا ، خشية صفعة من حيث لا يدريان .. ثم مشيا جنبا الى جنب ، وهى تريده وهو يريدها ، وكان قد ولد بينهما على مهل تعاطف مبعثه الرعب المشترك ، لكنهما كانا عاجزين عن الخروج على الطاعة ، وكان كل منهما على يقين بأنهما اذا تلامسا أو جمعتهما قبلة سيتلقيان فى الحال من الكابتن صفعة ! ..

وفى الساعة نفسها كان « اتيين » فى طريقه الى « موكيت » التى كانت أمس قد توسلت اليه أن يعود ، وكان مستخذيا ومصرا على عدم الاعتراف لنفسه بشغفه الغريب بتلك البنت المبذولة ، التى تعبده .. سيقول لها الليلة ان الاستمتاع جريمة عندما يموت الناس من الجوع ، ويقطع العلاقة فى مهدها .. ولم يجدها ، فجلس فى الظلمة ينتظرها .. وفجأة اضاء عند بئر المنجم عود كبريت ، عند تلك الفوهة المهجورة التى تقول الشركة منذ عشر سنوات انها

مستندها ، والتى تراكم حولها الخشب القديم ونبتت شجيرات وتعانقت أعشاب ، وذهل عندما تبين « جانلان » الذى كان يوقد شمعة ويغوص بها فى قلب الأرض !

ودفعه فضوله الى الجحر الذى اختفى فيه الغلام الاعرج فرأى قبسا من نور الشمعة يكشف طريقه ، فتردد قليلا ثم اندفع هو الاخر قاذفا بنفسه فى الجحر وهو يتعلق بجذور النباتات .. وانتهت سقطته عند درجة سلم ، فاخذ ينزل فى هدوء مستهديا بالنور الضئيل الذى يرقص فيه أمامه ظل الغلام عملاقا ومقلبا وهو يتوثب ببراعة قرد فى السلالم المتتابعة التى يبلغ طول الواحد منها سبعة أمتار ، والتى كان بعضها لا يزال متينا والبعض الآخر يتأرجح ويطقطق وقد اكتست الدرجات بعفونة خضراء ينزلق فوقها القدم .. وكاد يهوى مرتين لانزلاق قدمه على الخشب اللزج ، وراح يصطدم فى كل خطوة صدمة توجعه ..

وبعد هبوط اليم فى ثلاثين سلما وصلت به الى عمق مائتين وعشرة أمتار لمح الشمعة تختفى فى احد الممرات ، فتبعها فى رحلة اشد خطرا ، وخفافيش مذعورة تطير وتلتصق بالسقف فوق رأسه .. وحيث كان الغلام يمر بليونة الثعبان كان هو يؤذى اعضاءه فى ذلك الممر المهجور الذى كان يضيق فى بعض اجزائه كأنه مصران .. وصار الآن يتقدم فى حذر ، على ركبتيه او على بطنه ، متحسسا الظلمة أمامه ، وفجأة اكتسحت جسمه من العنق الى القدمين عصبة من فيران تركض هاربة

وفى نهاية كيلو متر اتسع النفق فجأة الى ما يشبه مغارة طبيعية ، فتوقف الشاب وهو من بعيد يرى الغلام وهو يضع شمعته بين صخرتين ويجلس مستريحا فى اطمئنان العائد الى بيته ..

وفى ركن من الكهف كانت كومة من التبن فى شكل مرقد لين ، وعلى قطع من الخشب القديم مرصوصة بشكل مائدة كان هناك خبز ونبيذ وكل الغنائم المكدسة ، حتى العقيم منها ، كالصابون والبوية اللذين سرقهما لمجرد لذة السرقة ، كل محصول الأسابيع الاخيرة الذى ينعم به الولد فى لذة قاطع الطريق الانانى ..

– قل لى ، أتهزأ بمن يموتون « فوق » من الجوع ؟

ارتجف الفلام من الرعب عندما سمع معه فى كهفه صوتا بشريا ، لكنه ما أن عرف المتكلم حتى استرد فى الحال طمأنينته :

– هل لك أن تتعشى معى ؟ هه ؟ .. قطعة من السمك المقدد ؟ ..

وبدأ يعمل فى السمكة الجافة بمدية جميلة ذات مقبض من العظم نقشت عليه كلمة « حب » ...

– لك مدية جميلة ! ..

– هدية من « ليدى » ! ..

لم يقل انها سرقتها نزولا على امره ، وانما اضاف بزهو :

– اليس مريحا أن يكون المرء فى بيته ؟ هنا ادفأ من « فوق » وأفضل ! ..

جلس الشاب وقد هاج فضوله فأسكت غضبه ، وتذوق الرغد فى أعماق هذا الجحر الدافىء الذى تسرح فيه قطعان من الفراشات والذباب والعناكب جردها بعدها الابدى عن الشمس من كل لون ، فهى بيضاء شاحبة البياض ..

– الا تخاف اذن ؟ ..

فنظر الفلام مندهشا :

– اخاف من ماذا مادمت وحيدا !

وأشعل نارا صغيرة وشوح السمكة المقددة فوقها ثم قطع رغيفا نصفين ، وأكل مع ضيفه ..

– والآخرون ، الا تفكر فيهم ؟! ..

– لماذا هم بلهاء ، الآخرون ؟! .. عندما سرقت رغيفا من « ميجرا » كان ذلك عوضا عن رغيف ندينه به !!

تأمل وجه الفلام الحيوانى وعينيه الخضراوين وأذنيه الكبيرتين ، والذكاء الشرس والحيلة الوحشية ، وكل اعتلال الجنين المجهض قبل أوانه ، والذى استردته الحيوانية القديمة .. ان المنجم الذى صنعه قد أجهز عليه يوم حطم ساقيه !

– وهل تأتى بصاحبتك « ليدى » فى بعض الاحيان الى هنا ؟

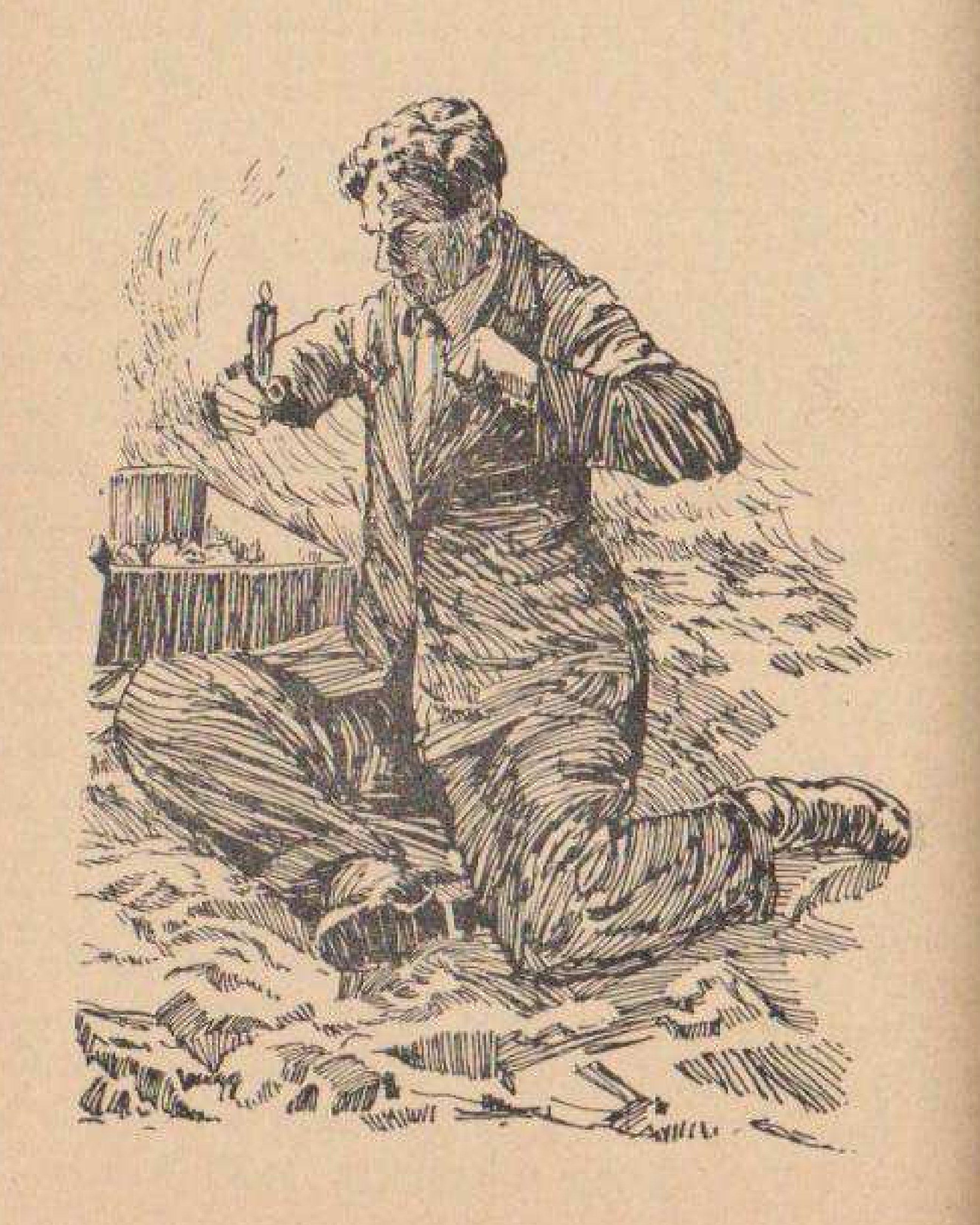
فكان رد « جانلان » ضحكة احتقار :

– آه ! .. لا ! .. فالنساء ثرثارات !

ثم ختم كلامه بجد فيلسوف صغير :

– الأفضل أن يظل المرء وحيدا ، فهكذا يكون دائما فى راحة ! ..

وفكر « اتيين » بعد أن أكل وشرب فى أن يتنكر لضيافة الفلام ويعيده الى اهله من اذنه ، لكنه تأمل تلك العزلة العميقة وتصورها ملاذا له أو للرفاق اذا ساءت الأحوال ، فتناول بقية شمعة وانصرف تاركا الفلام ليرتب بيته فى هدوء ..



- ١٨ -

كانت كل الطرق منذ الأصيل عامرة بظلال تنسل فى جماعات صغيرة نحو اعماق الغابة ، وقد لمح « هينبو » بعض هذه الظلال وهى تتوارى فى عتمة الغابة فحسبها تسعى الى متعتها المألوفة التى لا تتكلف شيئا فحسدها عليها ، وتمنى لو يموت مثلهم من الجوع ويكون فى وسعه أن يبدأ الحياة مع امراة تهبه نفسها بكل هذه الرغبة فوق أرض عارية ، ونكس راسه وهو يعود الى بيته فوق حصانه البطىء الخطو وقد ملأت نفسه باليأس هذه الأصوات المتصلة الضائعة فى قلب الخلاء المظلم ، التى لم يكن يسمع منها الا صدى قبلات .. اما هناك فى قلب الغابة فقد كان الأمر جدا ، وكان ثلاثة آلاف من عمال المناجم قد تجمعوا ومعهم نساؤهم واطفالهم فى بقعة اجتثت أشجارها ولا يزال بعضها ملقى فوق العشب كالعمالقة ، واخذت تصدر عن هذه الجمهرة همهمة كأنها ريح مزمجرة فى هذه الغابة الجامدة المثلجة ..

ووقف « اتيين » فى أعلى المنحدر الخفيف ، اما أصحاب الهزل ومن جاءوا للضحك وحده فقد لاذوا بجانب بعيد ، على حين تجمعت النساء فى هدوء وجد كما يظهرن فى الكنيسة ، واعتلى الولد الأعرج كومة الخشب المرصوص ناحية الشمال بعد ان اجبر تابعيه « بيبر » و « ليدى » على محاكاته ، حتى يكونوا اعلى من الجميع ..

ومرة أخرى كان الخلاف على اشده بين الرجلين الواقفين فى ذروة المنحدر ، فان « راسنير » كان يصر على أن تعاد عملية انتخاب المكتب بطريقة نظامية ، على حين كان من راى « اتيين » أن من الغباء اجراء مثل هذه الخطوة فى غابة ، وأن المطلوب الآن هو الاتفاق على تصرف ثورى ضد أولئك الذين يطاردونهم كما تطارد الذئاب ..

وعندما طال الخلاف صعد فجأة فوق جذع شجرة وصاح

مستوليا على الجمهور ، فانطفأ اللفظ المبهم فى تنهدة طويلة بينما كان « ماهوى » يطفىء احتجاجات « راسنير » ، واستمر « اتيين » فى زعيقه :

ـ ها نحن احرار كما لو كنا فى بيوتنا ، فلن تأتى الجندرمة لتخرسنا كما لو كنا لصوصا ، حيث لا يخطر لأحد أن يسكت الطيور والحيوانات نفسها ! ..

فأجابه رعد من الصيحات :

ـ اجل ! .. اجل ! .. الغابة لنا ومن حقنا أن نتكلم فيها .. تكلم !

كان القمر لا يزال خفيضا عند الأفق فهو لا ينير غير الاغصان العالية ، بينما ظل الجمع الكبير غارقا فى الظلمة وهو يصغى الى السكرتير وهو يستعرض الاضراب منذ بدايته وموقف الشركة التى تهدد الآن باستخدام عمال من بلجيكا ، كما تقنع بعض الضعفاء بالعودة الى العمل من وراء ظهر اخوانهم .. وقد صور لهم بأمانة خلو ايديهم من كل عون ، وانتصار الجوع ، وموت الرجاء ، ووصول الصراع الى حمى البسالة الأخيرة ، ثم ختم خطابه دون أن يرفع صوته :

ـ هذه هى الظروف التى على ضوئها يجب عليكم أن تتخذوا قراركم هذا المساء .. هل تريدون الاستمرار فى الاضراب ؟ .. وفى هذه الحالة ، ماذا تنوون أن تفعلوا للانتصار على الشركة ؟

سكت الجمع فى الليل الذى يخفيه ، فعاد الى الكلام ، بصوت متغير .. لم يعد سكرتير الجمعية هو الذى يتكلم ، بل الزعيم والرسول حامل الحقيقة .. أهناك جبناء يحنثون بالكلمة ؟ .. كيف ؟! .. أيكون عقيما كل العذاب الذى عانوه شهرا ؟ .. أيعودون الى المناجم منكسى الرءوس ليعود البؤس الخالد ؟ .. أليس أفضل من هذا أن يموتوا فى الحال فى محاولة مستميتة لتحطيم الاستبداد ؟ الى متى يتحملون وحدهم النكبات والازمات كلما خفضت ضرورات المنافسة سعر التكلفة ؟ .. لقد آن الاوان للبؤساء الذين بلغوا آخر مراحل الصبر أن ينالوا العدالة ويعانقوها ..

انفجر التصفيق وتعالت الهتافات ، وتوقد الزعيم ، ولان له

الكلام :

— البحر للصياد والأرض للفلاح ، فعلى المنجم أيضا يكون للفحامين ! .. أتسمعون ! .. المنجم ملككم ، كلكم ، انتم الذين دفعتم ثمنه منذ قرن بالدم والبؤس .. ملككم ..

وأناره القمر الصاعد فى الافق فرأوه أبيض فى النور ورأوا يديه المشيرتين الى البلد كله توزعان الثروة ، فصفقوا وهللوا .. لم يعودوا يحسون البرد منذ أدفأتهم هذه الكلمات ، وانما دقت قلوب الرجال والنساء وانتعشت ..

لكن « راسنير » أخذ يصرخ طالبا الكلمة ، فقفز الخطيب من فوق جذع الشجرة الملقى وهو يقول له :

— تكلم وسنرى أن كانوا يصغون اليك ! ..

ارتقى صاحب الخمارة ذلك المنبر وأشار يطلب السكوت فأبوا أن يسمعوه وضاع كلامه فى الضجة ، ثم انهم آخر الأمر رجموه ، وصاحت امرأة حادة الصوت :

— ليسقط الخائن ! ..

فكررت الهتاف آلاف الأصوات بينما كانت الحجارة تصفر فى الجو وهى تقصده ..

وشحب الرجل وانبثقت فى عينيه دموع اليأس ، فلقد كانت هذه اللحظة فى احساسه نهاية عشرين سنة من الأخوة الطموحة تتهاوى تحت نكران الجمهور ، فنزل وهو يقول للشاب المنتصر :

— هذا يضحكك ! ·· أتمنى أن يحدث هذا لك ، ولسوف يحدث ، أتسمع ! ··

وانصرف وحيدا خلال العراء الأبيض الصامت ..

وعاد « اتيين » الى المنبر فتكلم وأثار وسألهم مرة أخرى :

— ما هو قراركم ؟ .. هل تصوتون مع استمرار الاضراب ؟

تعالت الموافقة كالرعد ، فعاد يسألهم :

— وما هى اجراءاتكم ؟ .. ان هزيمتنا مؤكدة اذا عاد بعض الجبناء الى العمل غدا ..

— الموت للجبناء ! ..

— أتقررون اذن أن تعيدوا الجبناء الى الواجب والى القسم الذى

أقسمناه جميعا ؟ ·· هذا هو ما نستطيع أن نفعله ·· نذهب الى المناجم لنمنع الضعفاء من النزول ونرى الشركة اننا كلنا على وفاق واننا نؤثر الموت على الاستسلام ..

— هو هذا ! .. الى المناجم ! .. الى المناجم ! ..

فقال الزعيم منذرا :

— ليحذر عمال « جان بارت » الذين لم يتركوا العمل ، فنحن نعرفهم ! ..

فارتفع من الجمع صوت « شافال » يسأل :

— أتمنعنى بكلامك هذا ؟ ..

— انت أو غيرك ، لكن ما دمت تتكلم فان عليك ان تفهم ان أولئك الذين يأكلون ليس لهم ما يفعلونه مع الجياع ، انت يا من تشتغل ولا تضرب ! ..

— أهو ممنوع ان يشتغل الانسان ، أم ماذا ؟!

— أجل ! عندما يتحمل الآخرون البؤس من أجل خير الجميع ! .. لو ان الاضراب كان شاملا لكنا من زمن قد سدنا الموقف .. انه لا يوجد فى منجم « جان بارت » الا خونة ! .. كلكم خونة !

وتكونت حول « شافال » حلقة مهددة وارتفعت قبضات الأيدى وزعقات دفعته الى الصياح بفكرة جاءته للانتصار على منافسه الذى يغار منه :

— اسمعونى ! تعالوا غدا الى « جان بارت » وسترون هل اشتغل او يشتغل احد ! .. نحن منكم ، وقد ارسلونى لأقول لكم هذا ! ..

فصفقوا له ، وتم الاتفاق على اللقاء عند ذلك المنجم صباح الغد ، وملأ السماء أعصار هذه الآلاف الثلاثة من الأصوات ..

ثم انطفأ الأعصار فى ضوء القمر ..

- ١٩ -

غاب القمر ونام كل شىء فى بيت « آل دينولان » الواقع فى نهاية الحديقة الواسعة المهملة التى تفصل البيت عن منجم « جان بارت » ، أما الواجهة الاخرى للبيت فكانت تطل على الطريق المقفر المفضى الى القرية المجاورة الكبيرة المختبئة وراء الغابة على مسـافة ثلاثة كيلو مترات .. لكن رب البيت لم يلبث أن صحا من نومه على نذير من أحد رجاله بعصيان نصف عمال المنجم ، الذين يمنعون النصف الثانى من النزول للعمل » ..

ـ اجبرهم على النزول !! ..

وارتدى « دينولان » ملابسه فى عجلة وخرج من حجرته فالتقى بابنتيه مذعورتين تتساءلان عن الخبر ، وكانت الكبرى سمراء فارعة والصغرى دقيقة الجسم ذهبية الشعر وظريفة الدلال ، فأرغمتاه على تناول كأس من الروم وقطعتين من البسكوت قبل خروجه لمواجهة المخاطر التى تتهدد ماله ..

كان « شافال » قد وصل الى المنجم منذ الساعة الثالثة من الصباح واخذ يقنع زملاءه بضرورة الاقتداء بعمال الشركة والمطالبة بزيادة خمسة سنتيمات عن كل عربة فحم يخرجونها .. والذين ارادوا أن يشتغلوا حملوا مصابيحهم ووقفوا بأقدامهم الحافية وادواتهم تحت أذرعهم ، اما الاخرون فلم ينزعوا احذيتهم الخشبية وسدوا الطريق الى البئر .. وكان الرؤساء يضطربون وسط هؤلاء الاربعمائة رجل وهم يتوسلون الى المضربين ان يتعقلوا ولا يمنعوا الراغبين فى العمل من النزول ..

وغضب « شافال » عندما لمح « كاترين » فى ملابس العمل ، اذ كان قبل ان يغادر البيت قد امرها بعنف أن تظل راقدة ، لكنها تبعته ، فهى تريد ان تعمل لانه لم يكن يعطيها نقودا بل كان عليها هى فى الكثير من

الاحيان ان تدفع لها وله .. وماذا يكون مصـيرها الان اذا لم تعد تكسب شيئا ؟ . كان هناك خوف يسكنها .. الخوف من بيت من بيوت البغاء فى « مارشيين » كانت تنتهى اليه العاملات عندما تعز عليهن اللقمة والمأوى ! ..

وهددها بقدمه فتراجعت فى خوف ، لكنها لم تغادر المكان وأصرت على ان ترى كيف تتطور الامور ..

وظهر صاحب المنجم :

ـ ماذا يجرى يا أطفالى ؟ . ما الذى يغضبكم ؟ .. فسروا لى هذا ، وسنتفاهم ..

ـ هاك المسألة يامسيو « دينولان » ! .. نحن لا نستطيع الاستمرار فى العمل ، اذ تلزمنا خمسة سنتيمات زيادة فى أجر كل عربة ..

ـ خمسة سنتيمات ؟ ! .. بأية مناسبة هذا الطلب ؟ . أنا لا أشكو من عملكم فى التدعيم ولا اريد ان افرض عليكم تعريفة جديدة مثل شركة مونتسو ! ..

ـ لكن زملاءنا فى مونتسو هم مع ذلك على حق ، وهم يرفضون التعريفة ويصرون على زيادة السنتيمات الخمسة ، ونحن نريد خمسة سنتيمات زيادة ، اليس كذلك يا هؤلاء ؟

وايدت الاصوات « شافال » واقترب الجميع شيئا فشيئا حتى كونوا حلقة ضيقة ..

وقاوم صاحب المنجم رغبته فى الوثوب الى عنق أحدهم ، وسيطر على قبضته ، قبضة الرجل عاشق الحكومات القوية ، وآثر أن يناقش ويتكلم بعقل ..

ـ لا أستطيع ان أدفعها لكم .. اذا دفعتها لكم فمعنى ذلك ببساطة هو افلاسى .. افهموا اذن أنى يجب ان اعيش انا اولا حتى تعيشوا أنتم .. وانا فى اخر طاقة احتمـالى ، واقل زيادة فى سعـر التكلفة ستقضى على .. انى اذن افضل ان « اقفل الدكان » فى الحال على ان اعجز فى الشهر القادم عن دفع أجوركم ..

وبدا على بعض العمال التردد وعاد الكثيرون الى ناحية البئر ، فقال أحد الرؤساء :

ـ على الاقل ليكن كل واحـد حرا .. من هـم الذين يريدون أن

يشتغلوا ؟

وكانت « كاترين » فى طليعة المتقدمين ، لكن « شافال » دفعها فى غضب وهو يصيح :

ـ كلنا متفقون ولايخون رفاقه الا الخونة ! ..

واستحال التفاهم وارتفع الصراخ ودفع الثائرون زملاءهم بعيدا عن البئر ، فانسحب صاحب المنجم الى أحد المكاتب ، ثم أرسل أحد المراقبين فى طلب « شافال » وصرف الاخرين ليخلو بذلك العامل الذى صبحه بالاضراب على غير انتظار ..

وكانت فكرة « دينولان » ان يرى ماقى بطن هذا الولد !

ابتسم له وتملقه وداعب كبرياءه ، واصطنع الدهشة من ان يفسد عامل ممتاز مثله مستقبله اللامع ! .. انه هو يلحظه من زمن طويل ويعد له ترقية سريعة ! .. ثم عرض عليه بصراحة أن يعينه رئيسا ، فيما بعد .. وكان العامل يسمعه فى سكون ، وكانت قبضتاه فى البداية مضمومتين ، ثم تراختا شيئا فشيئا .. فتح الرجل له باب طموح جديد ، أن ينتقل الى صف الرؤساء ..

لقد حانت ساعته للاذعان ، لكن حركة راسه كانت تعنى الرفض ، رفض رجل لاتلين له قناة .. واخيرا وعد ان يهدىء رفاقه ويقنعهم بالنزول عن مطالبهم ، دون ان يشير فى كلامه مع صاحب المنجم الى اتفاقه فى الغابة مع عمال الشركة !. وكانت نتيجة هذا التراجع السريع من زعيم الحركة أن أنصرف مائة وعشرون عاملا وهم ثائرون عليه ومصرون على قرارهم الذى دفعهم الى اتخاذه فى البداية ، ونزلت الاغلبية الى العمل ..

وصرخ « شافال » فى « كاترين » التى كانت تنتظر دورها فى النزول الى قلب المنجم :

ـ ماذا تفعلين عندك ؟ هل لك ان تخرجى من تسكعك وتنزلى ! ! .

ـ ٢٠ ـ

فى الساعة العاشرة روع الذين يعملون فى بطن المنجم بدوى مريب ، ثم رأوا أحد الاسطوات يجرى وهو يصرخ :

ـ انهم يقطعون الاسلاك ! .. عمال مونتسو يقطعون الاسلاك ! . ليخرج الجميع ! .

فتراقصت المصابيح وانطلقت الظلال المذعورة تتخبط فى الظلام باحثة عن خلاصها ، لم يتخلف عن هذه الحركة الجماعية غير «شافال» الذى أوقف صاحبته كأنه يريد أن يظل فى قلب المنجم ولا يخرج لمواجهة عمال الشركة الذين واعدوه فأخلف وعده وخانهم .. لكن صوت الاسطى ارتفع من جديد :

ـ ليخرج الجميع ! . الى السلالم ! . الى السلالم ..

وحملتهما الموجة المجنونة المتخبطة الصاعدة فى أكثر من مائة سلم متعاقبة ، فلما بلغت « كاترين » السلم الثانى والثلاثين أحست أن ساقيها وذراعيها تتصلب ودار براسها دوار ولم تعد تطيق تشنج عضلاتها ، وفكرت فى أنها لن تصل سالمة الى نور النهار ، بل تسقط الى الموت وراسها الى أسفل .. واستمر ذلك الصعود الاليم اللاهث نصف ساعة بلغوا فيه السلم التاسع والخمسين ، ففكرت المسكينة :

ـ لا يزال أمامنا ثلاثة واربعون ! .

ولم تعد تشعر بحركاتها ، وزاد فى محنتها ان الذين كانوا تحتها أخذوا يدفعون من أمامهم ، والعمود الطالع كله هاجه الغضب المتزايد النابع من الرعب والاعياء والشوق الى وجه الشمس ..

وفجأة سقطت فصرخت باسم « شافال » الذى كان يتقدمها فى نداء يائس ، لكنه لم يسمعها ، اذ كان يقاتل ليشق طريقه بالقوة فوق زميل من زملائه ، فداسها الاخرون حيث سقطت .. وارادت ان تقاوم وتنهض ، وظلت من جديد ترقى السلالم حتى وجدت نفسها آخر

الامر وسط جمهرة زاعقة تزأر فى وجهها ، فى بهرة الشمس .. كان هؤلاء هم المضربون الذين جاءوا فى نحو خمسمائة رجل وامرأة على رأسهم « اتيين » وقالوا لصاحب المنجم بلسان رئيسهم :

ـ لم نأت لنلحق بك أذى ، لكن العمل يجب أن يتوقف فى كل مكان

ـ ان « رجالى » لن يصعدوا من « تحت » الا اذا بدأتم بقتلى !

ـ اتوسل اليك يا سيدى أن تصدر الامر لعمالك بالصعود ، فانى لا اضمن من معى ، وتستطيع أنت أن تتجنب الشر ...

ـ اليكم عنى ! هل اعرفكم ؟ لستم من رجالى ، ولا أجادل لصوصا يجوبون البلد لينهبوا البيوت ! .

فغطت على صوته زمجرة الرجال وشتائم النساء واقتحموا الباب، فشده رجاله فى اللحظة الاخيرة الى الوراء وهو يقاومهم ، واندفع المد المكتسح من الباب الى رحبة المنجم الداخلية ، ووجد « اتيين » نفسه عاجزا عن السيطرة على جماعته ، فراح يصرخ محذرا من الاقدام على أى تخريب عقيم ..

لكن صوت المرأة « لابروليه » الحاقد ارتفع رغم التحذير :

ـ الى المراجل لنطفىء نيرانها !

وصوت « ليفاك » وهو يصرخ فى رفاقه :

ـ لنقطع الاسلاك! . لنقطع الاسلاك ! ..

ولم يبق من يحتج غير « ماهوى » و « اتيين » الذى كان يصرخ :

ـ لا ! كيف نقطع الاسلاك وهناك رجال ونساء « تحت » يا رفاق !. لا ! لا ! ..

فيجيبه زئير واصوات من كل صوب :

ـ ليكن ! . كان عليهم ألا ينزلوا ! . وحسن أن نصنع هذا بالخونة !. اجل ، ليظلوا هناك ! . ثم ان عندهم السلالم !

وبدأ تنفيذ هذا الرأى ، لكن المرأة « لابروليه » التى كان رجلها قد لقى حتفه ذات يوم بعيد فى الاعماق السوداء كانت قد اختفت وهى لا تزال تزعق فى النساء :

ـ يجب أن نقلب النيران ! . الى المراجل ! .

وتبعها نساء رحن يفرغن الافران من وقودها بالجاروف ويقذفن بفحمها المتقد على الارض ..

وفتح « جانلان » حنفيات التفريغ فانبثق البخار فى عنف الرصاص ، وافرغت الصهاريج الخمسة فى شهقات كالعواصف ، واختفى المشهد كله فى ضبابة من البخار شملت النار والنساء اللاتى صرن كالاشباح ، ولم يعد ظاهرا غير الاعرج السعيد بهذا الاعصار الذى اطلقه ..

وكان العمال الثائرون وهم يجوسون خلال المنجم يتكلمون عن تحطيم الآلات وتخريب المنجم ، فقاومهم « اتيين » قائلا انه يكفيهم قطع الاسلاك واطفاء النار وتفريغ الصهاريج ، فان ذلك وحده كاف لجعل استئناف العمل مستحيلا ..

وعندما بدأ العمال الذين صعدوا فى السلالم بعد قطع أسلاك الاقفاص يظهرون قابلهم عمال مونتسو هاتفين بسقوط الخونة ، فكانوا يطرفون بعيونهم قليلا فى نور النهار ـ بعد تلك الساعة الطويلة الفظيعة فى ظلمة السلالم ـ ثم ينسلون جاهدين ان يبلغوا الطريق ويهربوا ..

ـ ليسقط الخونة ! .

ـ ليسقط الاخوة المزيفون ! .

واصطف المئات من عمال الشركة صفين كى يجبروا هؤلاء الخارجين على حق الزمالة على المرور فى هذا المشى الثائر ، وكلما بزغ عامل جديد لقيته صيحات الاستنكار والدعابات الغليظة .. انظروا هذا الذى طول ساقيه ثلاث بوصات تأتى بعدها على الفور مؤخرته ! .. وهذا الذى اكلت أنفه نساء « البركان » ! وهذا الاخر ، الكبير الذى لا أرداف له ! .. وتحولت الدعابات الى قسوة وكادت تنهال اللكمات .. لكن « اتيين » اندفع فى غيظ نحو « شافال » عندما رآه وصرخ فى وجهه :

ـ اهذا هو موعدك الذى جئت بنا اليه ؟ ؟

ـ خذوه ! . الى البئر ! . الى البئر ! .

وسحب « شافال » عندما هجم عليه الرجال وتلعثم من الخوف محاولا شرح موقفه ، لكن « اتيين » قطع كلامه وقد اخرجه الغضب عن طبعه وجرفته غضبة الجماعة :

ـ لقد اردت أن تكون من أهل البئر ، وسيكون لك ذلك ؟ .. هيا !. الى الامام يابغل ! ..

وظهرت « كاترين » مجهدة دامية الراحتين فما ان رأتها أمها حتى اندفعت نحوها رافعة يدها :

ـ يا قذرة ! . أمن أجل عشيقك تخونين أمك التي تموت من الجوع ! . .

لكن « ماهوى » أمسك بذراع امرأته ومنع الصفعة ، لكنه أيضا وبخ ابنته العاقة . .

. ـ الى الابار الاخرى ! . الى الابار الاخرى ! . .

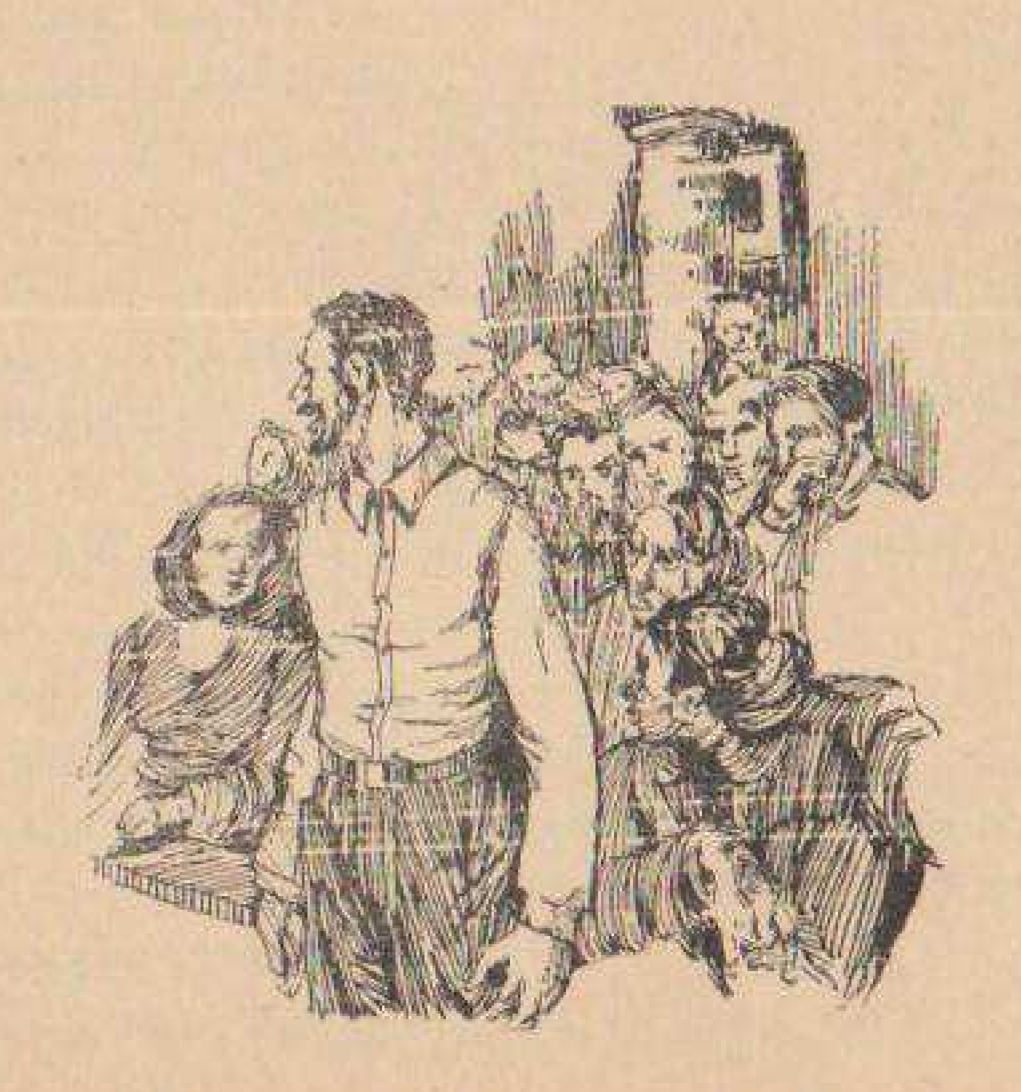
وكان ذلك صوت « اتيين » نفسه !

والتفت الى « شافال » وهو فى قبضة الرجال :

ـ وستأتى معنا أيها الخنزير القذر ! . .

وأجبروه على السير بينهم ، وصاحبته تجرى وراءهم خائفة على حياته . .

واندفعوا كالاعصار ! . .



ـ ياقذرة ! .. أمن أجل عشيقك تخونين أمك التي تموت من الجوع ! ..

ـ ٢١ ـ

كان عددهم قد بلغ الالف ، فساروا على الطريق بزعامة « اتيين » وهم يفيضون منه فى حقول البنجر ، وفى المقدمة الولد « جانلان » وقد رفع نفيرا عثر عليه فى المنجم وأخذ ينفث منه موسيقى بربرية ، والنساء فى الصفوف الاولى مسلحات بالعصى ، ومن ورائهن الرجال بقضبان الحديد ، تعلوها بلطة وحيدة يرفعها « ليفاك » فوق الرءوس فيبرق حدها فى الشمس كالمرآة ..

وعندما بلغوا منجم « مادلين » كان عددهم قد بلغ الفا وخمسمائة ، فقذفوا العمال الخارجين منه بالحجارة ، وانقذت هذه المطاردة مهمات المنجم فلم يلمس أحد أسلاكه أو مراجله ، وانحسر عنه المد لينقض على منجم « كريفكور » المجاور له حيث جلد النساء احدى العاملات بعد أن شقوا بنطلونها من الخلف عن أردافها امام الرجال الذين كانوا يضحكون ، وتلقى عدد آخر من عمال ذلك المنجم صفعات ادمت انوفهم ..

وتهيأ الجمع بعد ذلك للهجوم على منجم « سان توماس » الحديث الذى لم يبلغه الاضراب ، ويبلغ عدد عماله نحو سبعمائة رجل ، لكن الاشاعة سرت بأن هناك جندرمة ، فتحول الاتجاه الى منجم « فيترى كانتل » ثم تحول مرة اخرى بصورة تلقائية الى منجم « لافكتوار » اقرب هذه المجموعة من المناجم الى بلدة « مونتسو » نفسها .. لكنهم وجدوا ان عمال ذلك المنجم قد اتموا « الوردية » وانصرفوا ، فلما لم يجدوا هناك وجه خائن واحد يصفعونه هاجموا الاشياء ، فخلع الرجال القضبان وحطمت النساء المصابيح ، ولم يجدوا فى « الكانتين » الذى غزوه خبزا ، وكان كل ما وجدوه قطعتين من اللحم النيىء وكيس بطاطس ونحو خمسين زجاجة خمر « الجنيفر » ما لبثت ان اختفت فى البطون كنقطة ماء شربها الرمل ، واحمرت العيون بسكر سيء ،

سكر الجياع ، وبرزت من بين هذه الشفاة الذابلة أنياب الذئاب .. وفى منجم « جاستون مارى » قلبت الافران وافرغت صهاريج المراجل واكتسحت المبانى ، ثم تناول « اتيين » مطرقة ووضعها فى يد أسيره « شافال » قائلا له امام طلمبة المنجم :

ـ لك الضربة الاولى ! . هيا .. لقد اقسمت فى الغابة مع الاخرين !

وظلوا يضربون الطلمبة بكل ما فى أيديهم حتى انبثق الماء ، ثم ناول أسيره خنجرا واشهر هو خنجره قائلا له :

ـ لنصف هذه المسألة بيننا نحن الاثنين ! ..

وتذكرت « كاترين » وهى ترقب صراع الرجلين فى اعياء ورعب اعتراف « اتيين » لها بميله عندما يسكر الى افتراس انسان ، فاندفعت نحوه وصفعته بيديها وهى تصرخ فى وجهه مختنقة باستنكارها :

ـ جبان ! . جبان ! . تريد أن تقتله وهو بهذه الدرجة من الاعياء

والتفتت نحو ابيها وامها ، والتفتت نحو الاخرين :

ـ انتم جبناء ! . جبناء ! . اقتلونى اذن معه ؟ . اما ان لمستموه مرة اخرى فانى انا أثب فى وجوهكم ؟ ..

ووقفت امام رجلها تحميه ، ناسية ضربه ، ناسية بؤسها ، متسامية بفكرة انها تخصه مادام قد اخذها ، وانه من العار لها ان يهينوه هكذا .. وشحب « اتيين » تحت صفعاتها وسكت ، ثم قال فجأة لصاحبها وسط سكون عظيم :

ـ الحق معها ، هذا يكفى ، فاذهب ! .

وفى الحال انطلق « شافال » يجرى وانطلقت صاحبته تجرى وراءه ، ثم بدأ الجمع الكبير يتحرك مرة اخرى ، فقد قاربت الساعة الخامسة وصرخت البطون والافواه طالبة الخبز ، وكان القصد فى هذه المرة الى بلدة « مونتسو » نفسها :

ـ الى الادارة ! .

ـ الخبز ؟ . الخبز ! . الخبز ! .

وفى تلك الساعة كان السيد « هينبو » قد اتخذ مجلسه أمام النافذة فى حجرة مكتبه ، ولم يكن معه فى البيت غير الخادم « هيبوليت » والطباخة المنهمكة فى اعداد وليمة العشاء التى يقيمها سادتها فى ذلك المساء ، عندما تلقى أنباء غزو العمال المضربين للمناجم والخسائر التى

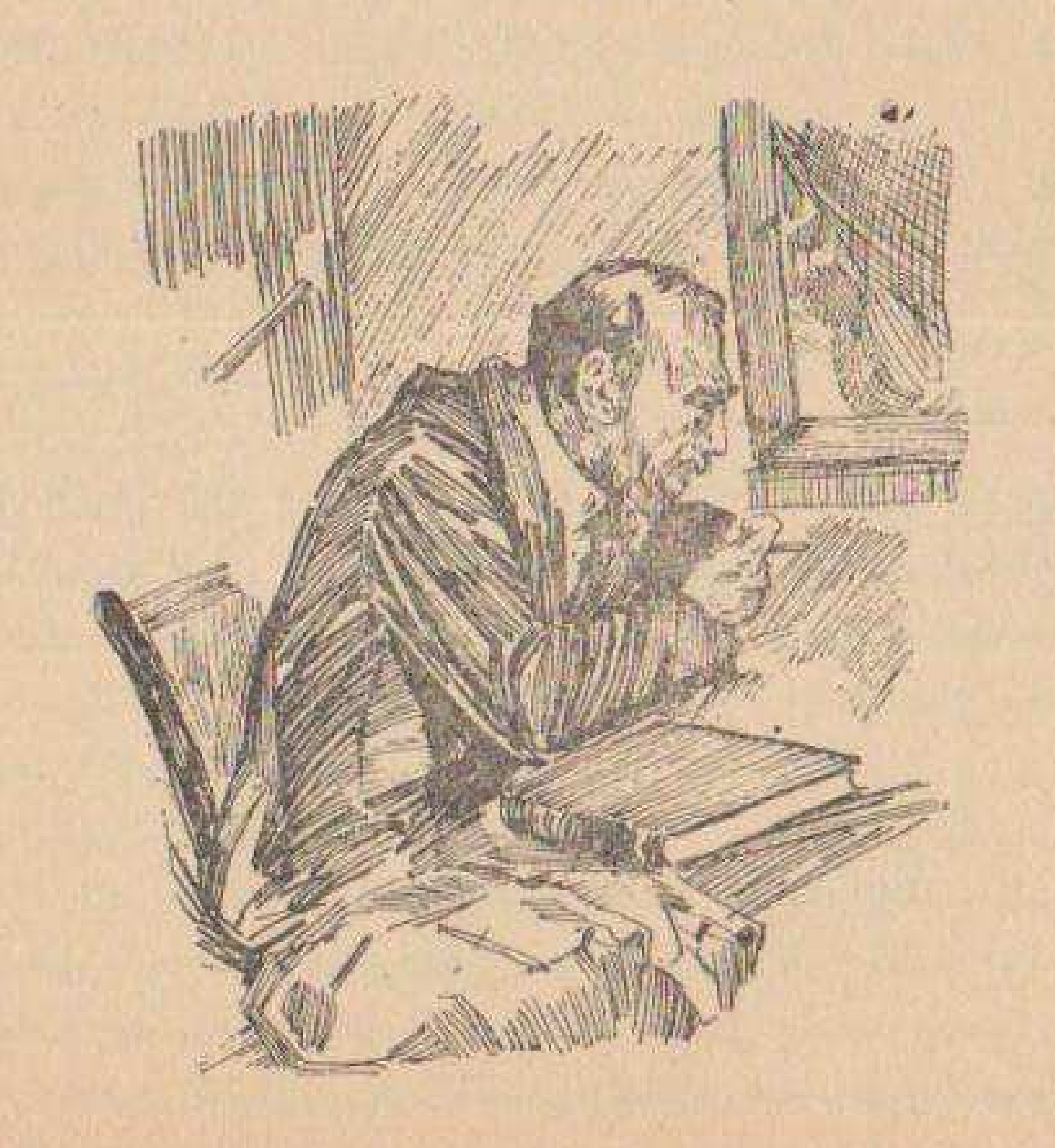
احدثوها بها .. وأراد ان يرجع الى مذكرة كان قد رجا « نيجرل » أن يحررها لارسالها الى المحافظ ، فلما لم يجدها بين أوراقه خطر له انه ربما يعثر عليها فى حجرة ابن اخيه ، فصعد للبحث عنها هناك ..

ودخل فوجد زجاجة عطر زوجته فوق فراش الشاب المهوش !

لابد اذن انها كانت هنا وأنها هنا كل ليلة ! .. وسقط فوق الكرسى وهو يحدق فى حالة الفراش وظل على هذا الحال فترة قبل أن يجذبه الواقع الخارجى فنزل ليواجه مسئوليته ..

ومن تعليمات الشركة أدرك أنها ترحب بوقوع الاضطرابات لانها ستعجل بانهاء الاضراب بالقمع الحاسم ، ومن تلك اللحظة لم يعد يتردد ، فأرسل برقية الاستنجاد الى المحافظ ، واستكن فى بيته حتى أفزعته فى الساعة الخامسة ضوضاء تدنو من نافذته ، ثم سمع الصيحة الفظيعة :

ـ الخبز ! . الخبز ! . الخبز ! .



ـ ٢٢ ـ

أقبل المضربون الجياع لغزو البلدة بينما كان رجال الجندرمة الذين يطاردونهم عبثا منذ الصباح قد توجهوا بهمة الى منجم « فورو » الذى خيل اليهم انه سيكون الهدف التالى للكتلة الجائعة الزاحفة .. وكانت الالاف السكرى بالجوع قد مرت بمزرعة صغيرة كانت تزورها زوجة المدير ومعها « نيجرل » و « سيسيل » وابنتا « دينولان » فرات زوجة المدير ومن معها من مخبئهم مرور ذلك الموكب الخارق كأنه أعصار من الحركات والصرخات ، وفى طليعته نحو ألف امرأة مهوشات الشعر فى أسمال تكشف الجلد العارى ، عرى اناث مجهدات ، وفيهن من تحمل صغيرها بين ذراعيها وترفعه وتهزه فوق الرءوس كأنه راية الحداد والانتقام .. وأخريات أكثر شبابا ولهن صدور محاربات بارزة يشهرن عصيا .. بينما عجائز النسوة ، الفظيعات ، يصرخن عاليا فتبدو عروق اعناقهن الهزيلة كما لو كانت تتمزق ..

ثم جاء الرجال ـ الفان هائجان ـ كتلة كثيفة تتحرك حركة واحدة غابت تفاصيلها فى مجموعها .. وفوق الرءوس ، وسط غابة من القضبان الحديدية ، مرت بلطة مرفوعة وحيدة ، لواء الجماعة ، ولها فى السماء الصافية منظر جانبى حاد كأنه نصل مقصلة ..

والغضب والجوع وشهران من العذاب كانت كلها قد أطالت وجوه هؤلاء البسطاء المسالمين فجعلت لها أشداق وحوش ..

لقد رأت السيدة ومن معها ـ من خلال ألواح باب المزرعة ـ رؤيا الثورة الحمراء التى ستحملهم كلهم حتما فى ليلة دامية من ليالى نهاية القرن هذه .. أجل ! ذات مساء سيثب الشعب هكذا وينثر ذهب الخزائن ويشق بطونها عن كنوزها !.. وسيتعالى صراخ النساء وتكون للرجال أشداق الذئاب ، مفتوحة للعض .. أجل ! ستكون نفس الاسمال ويكون نفس الرعد ولا يبقى حجر قائما .. لقد مروا بهذا

الطريق كأنهم قوة من قوى الطبيعة ، فتلقى هؤلاء القوم المترفون ريحهم الفظيع فى وجوههم ..

– الخبز ! .. الخبز ! .. الخبز ..

ووقف المدير ينظر من وراء شيش نافذة ابن أخيه المغلقة الى هذا الجمع المزمجر الذى يصفه بالكسول وبالاكرش وبالخنزير القذر ، وبمنطق الشبعان الاعرج الغبى راح يعجب لهم ما الذى اطلقهم هكذا فجأة من قناعة الغرائز المطمئنة ! .. وعنده هو ، فى هذه اللحظة ، كان الخير الوحيد فى الدنيا بالنسبة له هو عدم الوجود ، فاذا كان لا مفر من الوجود فشجرة او حجر ، بل اقل من هذا ، حبة رمل لا يمكن ان تدمى تحت نعال المارة ..

وأخذت الحجارة تصفع واجهة بيته ، واذا برجل واقف على عتبة خمارة قريبة من الميدان كانت صاحبتها قد بادرت باغلاق نوافذها ، تاركة الباب وحده مفتوحا ، اذا بهذا الرجل ينادى على « اتيين » فى شماتة :

– لقد انذرتك وها هى المتاعب تبدأ .. الان تستطيعون أن تطالبوا بالخبز ، وسيكون الرصاص هو ما تأخذون !

فأجاب « اتيين » فى جفاء على شماتة « راسنير » !

– انما يضايقنى الجبناء الذين ينظرون الينا ونحن نخاطر بحياتنا وهم معقودى الاذرع !..

– هل فكرتك اذن هى أن تنهبوا هذا البيت ؟ ..

– فكرتى هى البقاء الى النهاية مع الاصدقاء ، حتى او هلكنا كلنا معا ..

وعاد يصرخ فى الجمع الهائج قائلا انه لن يفيدهم شىء ان يحطموا زجاج النوافذ ، لكن لم يكن هناك من عاد يطيعه ، حتى « جانلان » راح يعلم « ليدى » و « ببير » كيفية استخدام المقلاع .. أما امرأة « ليفاك » وجماعتها فكان يحركهن هياج اعمى ، فهن بارزات الاظافر والاسنان ، نابحات ..

وفى تلك اللحظة أقبل « آل جريجوار » لزيارة بيت المدير فتركهم العمال يدخلون ، كما تسلل « ميجرا » الى بيت المدير محتميا به من هجوم «الغوغاء» على متجره وشخصه ، لكن المدير نصحه ببرود ان

يعود للدفاع عن بضائعه !.. ولم يتحرك التاجر من مكانه متوقعا ان يمزق اذا خرج .. كان عنقه لا بضائعه هو الان فى الميزان !

وطال هذا الحصار فبدأ المدير المتوتر يتكلم عن الخروج وحده لطرد المحاصرين ، وأخيرا أقبلت زوجته بجماعتها فدخلت « لوسى» و «جان» ابنتا « ديمولان » و « نيجرل » مع « المدام » فى هدوء ، لكن « سيسل » استولى عليها رعب جعلها تقذف بنفسها فى قلب الخطر ، فأحاطت وجوه صارخة بثوب من الحرير ومعطف من الفراء وريشة بيضاء فى قبعة ، وتركز السخط على هذا كله وعلى عطر يفوح وساعة رشيقة وجلد ناعم ، جلد منعمة كسول لا تلمس الفحم ! ..

– هذا هو ما يسرقونه منا ! ..

– سلموها لى عارية تماما ، حتى نعلمها كيف تعيش ! ..

قالت ذلك امرأة « ليفاك » فجاوبتها « موكيت » فى اندفاع :

– أجل ! أجل ! يجب أن نجلدها ! ..

وكانت « سيسل » ترتعد كلها وسط هذه العاصفة من الهياج وهى تردد عشرين مرة :

– سيداتى ! .. اتوسل اليكن ، سيداتى ، لا تؤذونى !

لكن يدين باردتين كانتا قد اخذتا بعنقها ، اذ كانت الموجة البشرية قد دفعت بها الى ناحية « الموت الطيب » الذى كان يبدو ثملا من الجوع ومشدوها من بؤسه الطويل ، خارجا فجأة من اذعان نصف قرن ، خاضعا لدفعة حقد لا يفهمها ازاء هذا العنق الابيض ، وكأن به حاجة قاهرة الى ان يضغط ويضغط بأصابعه ، كحيوان مشوه شائخ يجتر ذكرياته .. وفى الوقت نفسه كانت النساء مصرات على كشف مؤخرتها .. والمجتمعون فى الداخل وقد تنبهوا الى انها لم تدخل مع الاخرين اصابهم هوس من الخوف عليها ..

واندفع المدير وابن اخيه وفتحا الباب ، لكن الجموع قذفت بنفسها فى الحال على بوابة الحديقة ومنعتهما من الخروج ..

وظهر على سلم البيت والد البنت ووالدتها ، فاستطاع « اتيين » اخر الامر أن يخلصها من أصابع العجوز وأيدى النساء ، اذ واتاه الهام لتحويل السخط قبل أن تمزق البنت تمزيقا ، فرفع البلطة التى كان قد انتزعها من قبضتى « ليفاك » وهو يصرخ عاليا :

— الخبز كثير فى دكان « ميجرا » فلنحطمه ولنسوه بالارض !

وكان « ميجرا » فى مخبئه ببيت المدير قد بلغ ذروة الخوف على بضائعه التى راح يتخيلها وهى تنهب ، وأدراجه وهى تفتح وتغتصب ، والاكياس تشق بطونها ، وكل شىء يؤكل ويشرب ، فلن يتركوا له حتى عصا يتسول بها خلال القرى !.. فبرز كالمخبول وتسلل من حديقة بيت المدير الى سقف مخزن مجاور ، طامعا ان يصل عن ذلك الطريق الى شباك بيته ، لكن الجموع رآته فوق سقف المخزن العالى ، فهللت وزأرت .. والرجفة التى أصابت الرجل جعلت قبضتيه تفلتان حيث كانتا تمسكان فهوى وتلقفه جدار قذف به على جانب الطريق وقد انبثق مخه من جمجمته المكسورة ، وامراته تنظر شاحبة من وراء زجاج الشباك ..

حدثت لحظة من الروع ونسوا الدكان وتعلقت الابصــار بذلك الجدول الرقيق الاحمر الذى كان يتدفق من الرجل الميت ، ثم أحاط النساء بالجثة ليشتمنها ويتشفين فيها .. كنا مدينات لك ، فها أنت أيها اللص قد قبضت !.. وما من امراة فيهن الا أحست بالفرح ..

— انتظر يا لص !.. ينبغى ان أزيد فى سمنتك !.

كذلك قالت امراة « ماهوى » التى طالما أذلها ، وبأصابعها العشرة نبشت الارض وتناولت من ترابها قبضتين ملأت بهما فم الميت فى عنف :

— خذ !.. كل يا من كنت تأكلنا ..

والميت راقد على ظهره وهو ينظر فى جمود بعينيه الواســعتين الثابتتين الى السماء التى يسقط منها الليل .. هذا التراب الذى حشى به فمه هو الخبز الذى أباه على الجائعين ، ولن يأكل بعد الان الا من هذا الخبز .. واندفعت المخبولة « لابروليه » فانتزعت من جسم الميت مزقة دامية ولوحت بها بضحكة انتصار ، وحيت اللعنات هذه الغنيمة البشعة ، وتذكرت كل امراة أنها لن تأخذ بعد اليوم خبزا وتدفع الثمن من عفتها ، وهللن للحيوان الشرير الذى قضين عليه اخر الامر وتحررن منه .. ورفعت المخبولة مزقة اللحم الداميـــة على عصاها ومشت بها كالراية فتبعتها النســوة ، على حين كانت زوجته من وراء شباكها تتأمل المشهد فى جمود ..!

وفجأة ظهرت « كاترين » وهى تعدو فى فزع قائلة ان الجندرمة فى الطريق وان « شافال » هو الذى ذهب فجاء بها ، وقالت « لاتيين » فى شبه اعتذار :

— انج بنفسك ، فأنا مشمئزة منه ولا أريد أن يأخذوك !..

وسمعوا وقع ركض الخيل ففروا حتى لم يبق على الطريق غير الجثة ، بينما كان البورجوازيون غارقين فى عرقهم فى البيوت المغلقة واسنانهم تصطك دون أن يجرءوا على القاء نظرة ..

كان السهل يغرق فى الليل الكثيف ورجال الجندرمة يبرزون وهم يحرسون عربة حلوانى « مارشيين » التى كانت تحمل الحلوى الى وليمة بيت المدير !



ـ ٢٣ ـ

تولت حراسة آبار المناجم وآلاتها مراكز مسلحة ، واقيمت الحراسة على بيت المدير وبيوت بعض الاعيان ، ولم يعد يسمع على أرض الطرق غير مرور الدوريات البطيء ، وفى كل ساعتين كانت تدوى صيحات الحرس :

ـ قف من أنت ! .. تقدم بكلمة السر ! ..

وفى برد منتصف فبراير كان العمل لا يزال متوقفا فى كل مكان ، وكان العناد الصامت يواجه استعراض القوة ..

واستكن العمال فى البيوت فى ذلك الهدوء الكاذب وتلك الطاعة المغتصبة الصبورة لوحوش فى قفص تركز عيونها على المروض متاهبة لأكل عنقه اذا ادار ظهره .. وتحت هذا السلام الكبير العابس ظلت المعركة على هذا المستوى بين المضربين الصامتين والمناجم الميتة المحروسة بالقوة المسلحة ..

وكان التحقيق قد اثبت ان « ميجرا » مات من سقطته ، والشركة من جانبها لم تشأ أن تعترف بخسائرها واكتفت بأن أعدت كشفا بالمفصولين وأرسلت بطاقات أربعة وثلاثين عاملا من محلة العمال رقم ٢٤٠ وحدها ، ومن بينهم « ماهوى » و « ليفاك » .. لكن كل الحزم كان موجها الى « اتيين » الذى كان قد اختفى منذ مساء الحادث والذى كانوا يبحثون عنه دون أن يعثروا على أثر ..

وكانت الايام تمر وفى الجو احساس بانتظار النهاية ، اما الزعيم المختفى فقد عاش تحت الارض فى جحر « جانلان » الذى أبدع فى تموينه ، وصار الغلام الاعرج مورده الحذر الفطن ، هازئا بخداع الجندرمة والضحك عليها ، فجاءه بكل شيء الا ربطة شموع عزت على يده الجريئة الخاطفة .. وفى بداية الاسبوع الثانى قال له الغلام ان الجندرمة تعتقد أنه اجتاز الحدود الى بلجيكا ، فاستطاع الجراة على

الخروج من جحره عند هبوط الليل ..

كان فى شوق الى الحرية .. وكان من رأيه أن شهرا ثالثا من المقاومة يكفى للقضاء على الشركة التى ساءت حالة مناجمها ، لكنه فى الليلة التالية عاوده اليأس عندما علم ان مندوبى الشركة يفاوضون «دينولان» لشراء منجمه !.. ما هذا الغول الذى لا يشبع !.. يا للنفوذ الهائل لرءوس الاموال الكبيرة ، وكم هى قوية فى المعركة ! .. انها « تسمن » حتى فى الهزيمة بأن تأكل جثث الصغار الذين يسقطون الى جوارها فى المعركة ! ...

وعند منجم « فورو » كان يقف جندى شاكى السلاح ، ففكر « اتيين » فى الظلام وهو قريب :

ـ ولد صغير أشقر بوجه هادىء شاحب مبرقش بالنمش ، لماذا لا اكلمه واجس نبضه ! ...

وببساطة من لا يكترث ظل يقترب من الجندى وهو يلتقط قطع الخشب القديمة من الارض ، وظل الجندى جامدا .. ثم كلمه ، لكن الجندى لم يكن ليفهم شيئا اكثر من انه اذا صدر له الامر باطلاق النار فهو يطلق النار ، حتى لا يعاقب .. لا فائدة !

وكان الثلج يكسو ذلك البلد الاسود ببياض لا نهاية له ، ولم يكن هناك خيط واحد من الدخان يتصاعد من اسقف المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال ، التى كانت بيوتها الخالية من النار فى برودة احجار الطريق ، كأنها رؤيا قرية ميتة ملفوفة فى كفنها ..

وعلى طول الطرق كانت الدوريات التى تمر هى وحدها التى تترك اثار اقدامها الموحلة ، ثم لا فحم ولا بترول فى كل بيت ، ولا طعام !..

وفى بيت «ماهوى» كان « الاب رانفييه » القسيس الجديد ـ دون أن يدهشه هذا البيت الميت الخالى من النور والنار والخبز ـ يحدث الاسرة قائلا ان الاغنياء سرقوا سلطة الله ، وانه هو لا يفعل مثل القسس الاخرين ، فهو لا يأكل فى بيت المدير ، وهو أيضا ثائر انجيلى .. لكن « ماهوى » أسكته فى زمجرة :

ـ لا جدوى من كل هذا الكلام ، وكان أولى لك ان تبدأ بأن تحمل لنا رغيفا !..

وجاء « اتيين » بعد انصراف القسيس ، على مألوف عادته فى قلب

الليل ليزور هذه الاسرة الصديقة التى عرفت وحدها مخبأة وحفظت سره .. وكان هذا المجهول الذى انتهى اليه امره قد أحاطه بأسطورة تقول انه سيعود الى الظهور ومعه نجدة وصناديق ذهب ، اذ كان ايمان الاغلبية به باقيا .. لكن البؤس الذى يفعم هذا البيت ملأ نفسه يأسا فلما دار كلامهم حول تفكير الشركة فى استخدام عمال من بلجيكا بحماية القوات المسلحة ، بدا هو يشير من طرف بعيد الى الاستسلام ، لكن امراة « ماهوى » نفسها انفجرت صارخة فى وجهه :

ــ ماذا تقول ؟!.. انت من يقول هذا !.. اذا كررت هذا الكلام فانى أنا المراة بيدى أن أصفعك !.. ابعد كل ماعانيناه نعود خانعين الى الظلم ؟. لا ! .. لا !. انى انا الان أقتل واحرق ولا اسلم أبدا !..

وأشارت الى رجلها القابع فى العتمة بحركة مهددة :

ــ واذا عاد رجلى الى المنجم فسوف انتظره على الطريق لابصق فى وجهه وادعوه بالجبان !..

وتراجع الشاب أمام هذا الغضب الذى هو خالقه فى البداية ، ليس هو الان الذى يتكلم فى السياسة بل هى هذه المرأة بنت الشعب التى تنادى بالجمهورية وتخليص الارض من اللصوص الذين يسمنون من عمل الجياع ! ..

هاهى ذى تتكلم مرة اخرى :

ــ أجل !.. انا !.. بأصابعى العشرة ساسلخهم .. لقد كفانا استسلاما ولقد جاء دورنا .. وانت نفسك كنت تقول هذا .. انى عندما افكر فى الاب والجد وأبا الجد قد تعذبوا كما نتعذب ، وان ابناءنا واحفادنا سيعانون ايضا نفس العذاب ، فان هذا يجعلنى مجنونة تبحث عن سكين .. وما فعلناه فى ذلك اليوم لم يكن كافيا ، كان ينبغى ان نهدم « مونتسو » ونسويها بالارض الى آخر حجر فيها .. وانى لنادمة لانى لم اترك العجوز يخنق تلك الناعمة ، كما يتركون هم الجوع يخنق صغارى أنا !..

سقطت كلماتها فى هذه المرة كضربات البلطة ، فحياها الشاب فى خشوع :

ــ لقد اسأت فهمى .. انما اريد ان نصل الى اتفاق مع الشركة التى ساء حال مناجمها ولاشك فى انها تقر التسوية ..

فزارت المرأة :

ــ لا !.. لاشيء من هذا ! ..

وكان العجوز « بون مور » يصغى الى ثورة زوجة ابنه وهو محتفظ بجمود شجرة معمرة انحنت بفعل الريح ، بينما كان زوجها يتمشى دون ان يتلفت ، بين خزانة الطعام الخاوية والموقد الميت ..

وساد الصمت لولا بكاء الصغار من الجوع ..!



- ٢٤ -

— لو ان يدى ملكت لاخذت الارض ، هكذا وحطمتها فتاتا حتى تدفنوا جميعا تحت الانقاض !..

كان الفوضوى « سوفارين » يكلم « اتيين » الذى لجأ اليه يستفتيه فى حدث جديد داهم هو وصول العمال البلجيكيين فى الليل وموجة اليأس العارمة التى احدثها وصولهم .. كان من رأيه ألا فائدة من كل هذه السخافات .. ان عمال القبعات فى مرسيليا الذين ربحوا مائة الف فرنك فى جائزة اليانصيب الكبرى قد اشتروا فى الحال عقارا قائلين انهم سيعيشون بعد ذلك دون أن يعملوا شيئا !.. أتفهم هذا ، أنت ؟.. هذه هى فكرتكم ، كلكم ، يا عمال فرنسا ، ان تدفنوا كنزا حتى تأكلوه وحدكم فيما بعد ، فى ركن من الانانية والكسل ..

ومهما صرختم ضد الاغنياء فان الشجاعة تنقصكم فلا تردون للفقراء المال الذى يبعث به الحظ اليكم .. ولن تكونوا ابدا جديرين بالهناء ما دام لكم شىء تملكونه وما دام حقدكم على الظالمين لا ينبع الا من حاجتكم المسعورة الى ان تكونوا بورجوازيين فى مكانهم !.. وكلكم محصودون يوم يولد ذلك الذى سيعدم جنسكم ، جنس الجبناء والمستمتعين !.. وكانا يتكلمان فى الخمارة ، فحدث صمت طال حتى عكره ظهور « شافال » فجأة وهو يدفع « كاترين » امامه ، وكان قد سكر فى جميع خمارات « مونتسو » ثم جاءته فكرة الذهاب الى خمارة « الافتتاح » ليظهر للاصدقاء القدامى أنه ليس خائفا ..

ودخل وهو يقول لعشيقته :

— ستشربين هنا كأسا وانا اكسر بوز أول من ينظر الى بجنب عينه ؟!

ودهش من وجود « اتيين » عند « راسنير » ومن تصافيهما بعد ما كان بينهما ، وأخذت « كاترين » هى الاخرى عندما رأت الشاب ، لكن صاحبها تهكم :

— مدام « راسنير » ! علينا بالبيرة فاننا نحتفل باستئناف العمل غدا فى كل المناجم !..

والخمار والرجلان الاخران لم يتحرك احد منهما من مكانه ، لتطاول « شافال » السكران :

— أعرف قوما قالوا انى جاسوس ، وانتظر منهم أن يكرروا هذا القول أمامى ، حتى نتفاهم اخيرا !

لم يرد أحد ، وادار الرجال رءوسهم وتأملوا الجدران ، فاستمر بصوت أعلى :

— هناك الكسالى وهناك غير الكسالى .. وانا ليس عندى ما أخفيه ... لقد تركت منجم « ديبولان » وسوف أنزل غدا فى منجم « فورو » مع اثنى عشر بلجيكيا تحت امرتى ، لانهم يقدروننى .. فاذا كان لاى شخص اعتراض على هذا فانه يستطيع ان يقولها ، وسنتكلم ..

فلما قوبل تحديه بنفس الصمت المترفع تفجر غضبه على صاحبته نفسها :

— لنقرع كأسينا نخب هلاك كل السفلة الذين يرفضون أن يشتغلوا !..

واخرج من جيبه قبضة من العملة وعرضها بمفاخرة السكران قائلا انه بعرق المرء يكسب هذا ، وانه يتحدى الكسالى ان يبرزوا نصف فرنك !. وعند هذا الحد نهض له « اتيين » فى حزم هادىء :

— اسمع !.. انت تضايقنى آخر الامر !.. اجل انت جاسوس ونقودك يفوح منها نتن الخيانة ، ويقرفنى ان المسك ، لكن لا بأس !.. فلقد وجب أن يأكل احدنا الاخر ..

فضم « شافال » قبضتيه :

— أخيرا !.. يجب ان يقال لك الكثير حتى تثور حميتك يا جبان !..

وتقدمت البنت بينهما بذراعين متوسلتين وان كانت قد احست فى هذه المرة ضرورة المعركة ، ثم تقهقرت من نفسها دون ان يدفعها واستندت الى الحائط ..

وببساطة رفعت زوجة صاحب الخمارة كئوسها حتى لا تسكر ، ثم جلست فى مكانها دون أن تبدى فضولا غير مناسب ..

وتدخل «راسنير» وعائد فى تدخله حتى اخذه « سوفارين » من كتفه ورده الى المنضدة وهو يقول له :

ـ هذا لا يعنيك ، فان احدهما زائد ، والبقاء للاقوى !..

واشتبك الرجلان فى ملاكمة طالت قبل أن يصرع « اتيين » الشاب المتحدى بلكمة ألقته على ظهره، لكنه ما لبث أن جمع نفسه وهجم من جديد وقد ندت عن حلقه زمجرة وحشية ، وخرجت يده من جيبه فما ان رأتها « كاترين » حتى انطلقت من قلبها بالرغم منها صرخة كبيرة ادهشتها ، كما لو كانت اعترافا بايثارها أحد الرجلين على الاخر، ذلك الايثار الذى كانت هى نفسها تجهله :

ـ خذ حذرك !.. ان معه السكين !

تفادى الطعنة الاولى وقبض على معصم خصمه ودار بينهما صراع انتهى بسقوط السكين الى الارض والتقاط الاول لها فأمسك بغريمه تحت ركبته وهدده بفتح حلقه :

ـ هذه نهايتك ايها الخائن !..

وكان صوت الوراثة فى تلك اللحظة يدوى فى نفس « اتيين » ، صوت فظيع صادر من احشائه ، يصم اذنيه ، يضرب فى راسه بدقات مطرقة ، جنون فجائى بالقتل ، حاجة الى تذوق الدم .. لكنه لم يكن ثملا ، فقاوم الشر الموروث وقذف بالسكين وراءه وأهاب بالمهزوم فى صوت أجش :

ـ انهض واذهب !..

ومسح « شافال » بجانب يده الدم الذى كان يسيل من انفه وجر ساقيه ، لكنه عندما رأى «كاترين» تريد ان تتبعه شد قامته وانفجر حقده فى طوفان من القذارات قبل ان يحذرها من وضع قدمها بعد اليوم فى بيته ، اذا كانت حريصة على جلدها .. وصفق الباب ..

وساد السكون فى الخمارة الدافئة التى لم يبق فيها غير الكرسى المقلوب ودم يشرب قطراته الرمل المنثور فوق البلاط .. وبعد قليل خرجا من الخمارة معا وسارا فى صمت ·· هو وهى ·· رفضت أن تعود الى بيت أهلها بعد أن تخلت عنهم ، فمشيا جنبا الى جنب فى الليل ··

وقالت له وهى تقبله :

ـ ان التنقل بين الرجال يقرفنى !.

وتبدت له الحقيقة .. صحيح انه ليس فى انتظارها عند « شافال » غير الصفعات ، لكن ماذا عنده هو أحسن من هذا يقدمه لها ؟

حياة الهروب والبؤس وليل بلا غد !..

لعلها على حق ، فأوصلها فى صمت الى بيت « رجلها » وراقب البيت لحظات بعد دخولها وهو يرهف سمعه متوقعا صراخ المرأة المضروبة ، لكن نافذة فى الدور الاول اضيئت ثم فتحت وهمست منها البنت :

ـ لم يعد بعد من الخارج ، وسأرقد ·· اتوسل اليك ان تذهب !

وانصرف حزينا ، فلما حاذى منجم « فورو » نظر فرأى «جانلان» يقفز فجأة من الظلمة فوق كتفى الجندى الحارس فى وثبة قط متوحش ، ويغمد سكينة فى عنقه !

وكان الحادث خاطفا لم تصدر عنه الا صرخة مختنقة من الحارس ثم بزغ القمر من وراء السحب وتألق نوره على المشهد ، فاندفع « اتيين » فى ذهول ليجد الغلام القاتل على يديه ورجليه أمام الجثة المفرودة الذراعين ، والتى كان السكين لا يزال مغروسا فى عنقها الى مقبضه .. وبلكمة ناقمة ألقى الغلام عند الجثة ، وشفع اللكمة بركلة ، وواجه وهو يتلفت تلك السكين المغروسة فى العنق بمقبضها العظمى الذى نقشت عليه بحروف سوداء كلمة « حب » .. تنقلت نظرته من العنق الى الوجه ، فاذا به الجندى الذى تحدث اليه ذات مرة وعرف منه ان اسمه «جول» وان له اما واختا تنتظرانه فى بلدته البعيدة .. وأخذته الشفقة بهذا الوجه الاشقر المبقع بالنمش ، ثم نادى الغلام الخائف المبتعد وقال له :

ـ تناول الساقين ؟ .

وتناول هو الكتفين بعد ان علق بندقية القتيل وراء ظهره ... واحتواهما الليل ..

وأخيرا هبطا بالجثة فى المنجم المهجور فسارا بها كيلو مترا تحت الارض حتى وضعاها تحت صخرة تدعمها أخشاب عطنة متهاوية ، ووضعا الى جوارها البندقية ، ثم هشما الدعامات فهوت الصخرة انقاضا وسحقت تحتها الجثة سحقا بطيئا ..

— ٢٥ —

نظرت البنت الى الافق فرات جمعا من الرجال والنساء مقبلا من ناحية المساكن ، ورأت الجنود الستين يسدون بسلاحهم البـــاب الوحيد المفتوح ، وقد صفهم الضباط صفين لصق جـــدار المنجم الحجرى ، حتى لا يقع عليهم هجوم من الخلف ..

وكان العمال الغاضبون قلة لا يكادون يبلغون الثلاثين ، فوقفوا عن بعد يتصايحون بكلمات عنيفة مبهمة ويلوحون فى غضب ، حتى سندتهم موجة أخرى اقبلت من المساكن بقيادة « ليفاك » الذى كان يهتف بسقوط البلجيكيين ٠٠ ثم اقترب « اتيين » من الضـــابط وقال له انه لا جدوى من مجزرة عقيمة وان العدالة فى جانب المضربين ، وكلنا أخوة ، وينبغى أن نتفاهم ٠٠

وكان الضابط شابا طويلا نحيلا فى نحو الثامنة والعشرين ، بوجه قانط وحازم ، فقال وهو محتفظ بتصلبه العسكرى :

ـ لا تجبرونى على اداء واجبى ! ..

ومن وراء النوافذ ظهرت وجوه المهندس « نيجـــرل » ورئيس العمال « دانساير » ثم وجه اخر هو « سوفارين » الذى لم يغـــادر مكنته يوما واحدا منذ بدء الاضراب ..

هذه هى النهاية ، لم يعد هناك الا القتال والموت ..

لكن موجة العمال الصاعدة اندفعت أول الامر نحو الجنود يهيبون بهم أن لسنا ضدكم فانصرفوا ، كلنا من الشعب وواجبكم انتم ايضا أن تكونوا مع الشعب ٠٠ وفى جمود استمع المســـلحون الى نداء الاخوة ، ومن ورائهم كان ضابطهم قد استل سيفه من غمده عندما وجد انهم صاروا مئات وانهم يضغطون على جنوده ويهددون بسحقهم على الحائط ، واصدر أمره باشهار السنكى .. فأطاعوا ، وواجه صدور المضربين صفان من أسنة الفولاذ ، وفتح « ماهوى » سترته وقميصه وعرض صدره العارى ولحمه المشعر الموشوم بالفحم واندفع نحـــو

اسنة السنكى فاجبرها على التراجـــع ، فظيعا بوقاحة لســـانه وبسالته . .

وقبض الجنود فى الاحتكاك على ثلاثة من بينهم «ليفاك» واودعوهم فى مكان ظاهر من حجرة رؤساء العمال ، فتعالت الصيحات طالبـــة الافراج عنهم فى الحال ، وتطايرت الاحجار فجرح جبين الضابط كما جرح عدد من جنوده ، وفتح فمه كى يأمر باطلاق النار ، لكن البنادق كانت قد أطلقت الرصاص فى دفاع غريزى عن النفس،ثلاث رصاصات فى البداية ، ثم خمس ، ثم هزيم كتيبة كاملة ، ثم طلقات مفردة دوت وحدها بعد سكون طويل ..

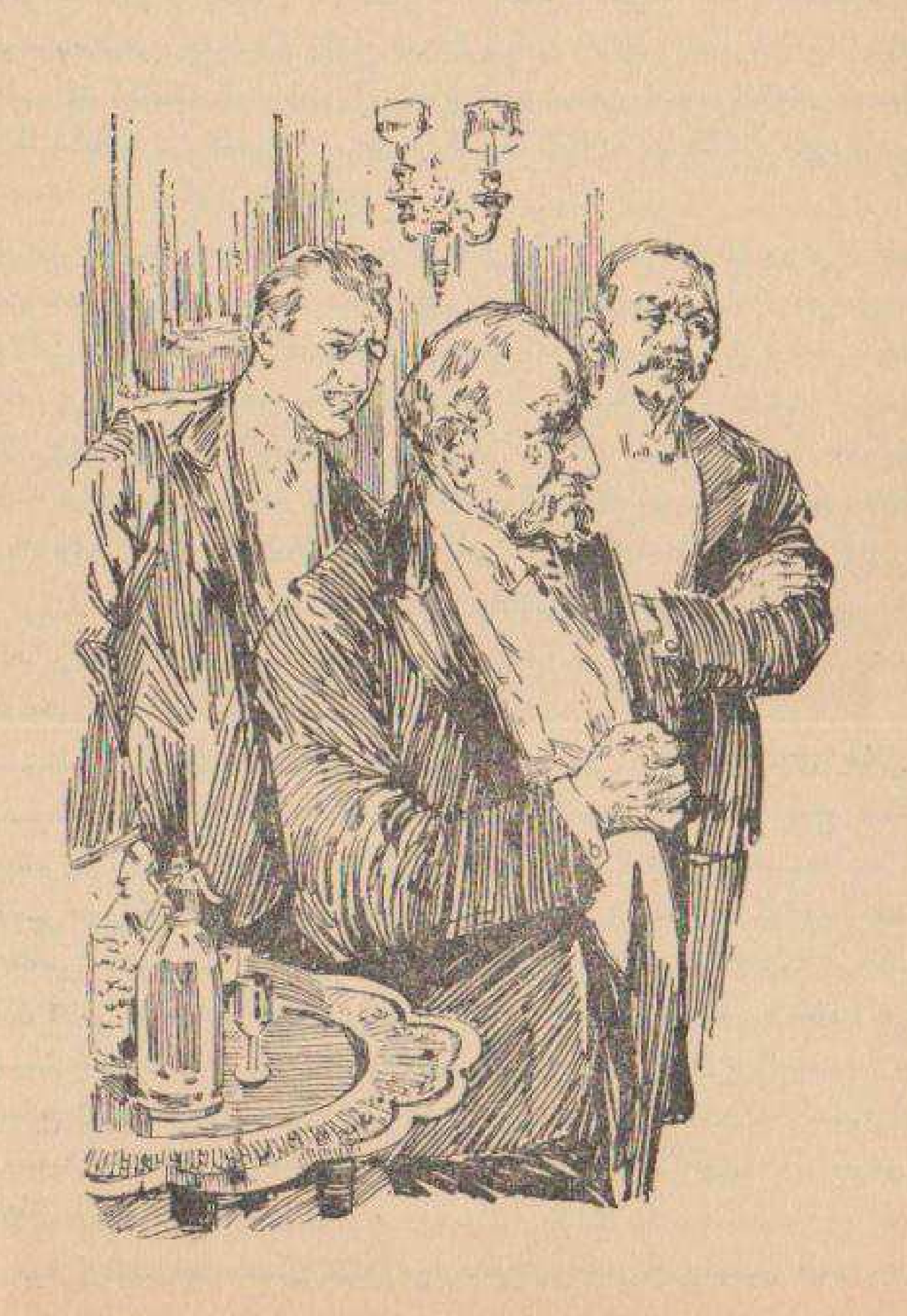
ظل الجمع جامدا لا يكاد يصدق أنهم أطلقوا النار ، ثم ارتفعت صرخات ممزقة وحدث ذعر مجنون وهروب متخبط فى الوحل .. وكانت « ليدى » قد أصيبت فى وجهها كما أصيب « ببير » تحت الكتف اليسرى ، فمات وهو يحتضنها .. ورصاصة اخرى قتلت المـــرأة «لابروليه» وأخرى دخلت فى فم « موكيه » واثنتان تلقتهما «موكيت» أخته فى بطنها .. اما تلك الرصاصة الاخيرة المفردة فقد ضربت قلب « ماهوى » نفسه وألقته على وجهه فى بركة ماء اسود ٠٠

وعند هذا الحد من المعركة ظهر «الاب رانفييه» عائدا من عظته وقد رفع ذراعيه الى السماء ـ فى نقمة نبى ـ مستنزلا غضـــب الله على القتلة .. !

وتردد صدى رصاصات « مونتسو » فى باريس بدوى هائل ، وعبرت صحف المعارضة عن استنكارها ، وروت كيف جرح خمسة وعشرون وقتل اربعة عشر من بينهم طفلان وثلاث نســـاء .. أما الامبراطورية التى أصابتها تلك الرصاصات فى صميم كيانهـــا فظلت تتظاهر بهدوء القوة العليا ، دون ان تتبين هى نفسهاخطورةجرحها .. كان الامر عند حكومة الامبراطورية مجرد تصادم بسيط يؤسف له ٠٠ شيئا ضائعا هناك فى البلد الاسود البعيد عن الشارع البـــاريسى صانع الرأى العام ، وسرعان ما ينسى ! .. وتلقت الشركـــة أمرا رسميا بخنق المسألة ووضع حد لذلك الاضراب الذىتحول استمراره المقلق الى خطر اجتماعى ..

وفى الصباح وصل ثلاثة من مديرى الشركة وقيـــل انهم جاءوا

مسرعين ليفتحوا للساخطين المستحقين أذرعا أبوية ، وطرد العمال البلجيكيون ، وأوقف الاحتلال العسكرى للمناجم ، ووئدت حكاية الحارس المختفى بزعم أنه فر من الخدمة ، لكن مديرى الشركة هؤلاء لم ينسوا فى الوقت نفسه ان يستمروا فى مفاوضة « دينولان» لشراء منجمه !



- ٢٦ -

كانت المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال ممعنة فى مقاومتها النافرة عندما ألصقت على الجدران اعلانات صفراء كبيرة وفيها كلمات ضخمة قليلة تعلن أن جميع مناجم الشركة سيعاد فتحها صباح الاثنين، وبعد عودة العمل تفحص كل التحسينات الممكنة ، بعناية وعطف .. لكن دم الزملاء الذى صبغ الارض بحمرته كان يسد الطريق ، فلم يعد الى العمل فى الموعد المضروب اكثر من عشرة من طراز «بييرون» وتركهم الباقون يذهبون ويجيئون دون أن يتعرضوا لهم ! ..

وكانت هذه المقاومة العنيدة الجديدة بلا زعامة ، فقد ذهبت مع الريح يوم المجزرة بقية سمعة « اتيين » ولم يعد يظهر دون أن تتعقبه نظرات ملتهبة توجه اليه اتهاما صامتا وغضبة مكبوتة ..

ثم بدات المحلة كلها تخرج له صارخة فى وجهه ببؤسها ..

وقال له « موك » الذى فقد فى المعركة ابنه « موكيه » وابنته « موكيت » عندما قابله :

ــ ألا تموت ياسافل كما مات ابناؤنا ! ..

والتقط قالب طوب وكسره وقذفه بنصفيه ، على حين صاح « شافال » الذى سره هذا الانتقام :

ــ كل له دوره ! ..

ووقف الشاب مذهولا يواجههم ويحاول ان يهدئهم بالكلمات التى طالما هللوا لها يوم كانوا فى يده .. لكن الايدى الساعية الى الطوب كثرت ، فان سحره كان قد ذوى ..

وحصروه عند واجهة الخمارة بعد أن اصابوه فى ذراعه ، فادخله « راسنير » وسد باب الخمارة بكتفيه العريضتين :

ــ كونوا عقلاء يا أصدقائى فانتم تعرفون أنى ما خدعتكم يوما ، أنا .. كنت دائما مع الهدوء ، ولو انكم استمعتم لى لما وصلتم الى

هذا الحال ..

وواتته بلاغته السهلة فاستمر يتكلم فى عذوبة الماء الدافىء المهدئة، وعاوده كل نجاحه الغابر ، واسترد بلا جهد صيته القديم ، كما لو أن هؤلاء لم يسموه منذ شهر بالجبان .. وارتفعت أصوات تؤمن على كلامه حتى فاضت المرارة بنفس الشاب المختفى داخـــل الخمارة ، وتذكر نبوءة هذا الرجل فى الغابة يوم قال له ان له هو الآخر يوما تتنكر له فيه الجماهير .. ان الجموع التى خفق قلبها مع قلبه فى ليلة الغابة هى الآن التى ترجمه ! ..

انه لم يقدهم بل هم الذين كانوا يقودونه الى صنع اشياء ما كان ليصنعها بدون نشوة الجمع الزاحف وراءه !

وعند كل عمل من اعمال العنف التى مارسوها كان يغشـاه ذهول الاحداث ، فهو لم يتوقع العنف ولم يرده ، وهاهم الآن يتهمونه بانه وعدهم بحياة من الاكل والكسل ثم لم يف بالوعد !

وسمع الهتافات الحماسية فى الخارج بحياة « راسنير » الذى أغلق الباب بينما كان الجمع يتفرق ، وتبادل الرجلان النظر فى صمت ، ثم هز كل منهما كتفية ، وانتهيا بأن شربا البيرة معا ..

وفى اليوم نفسه كانت هناك وليمة عشـــاء كبيرة فى بيت « آل جريجوار » حيث كان يحتفل بخطبة المهندس «نيجرل» وكريمـة البيت « سيسل » فتحول هذا الحفل من تلقاء نفسه الى احتفـال رسمي بانتصار الشركة ..

وتبودلت الانخاب ! ..

الآن ياكلون وينامون فى سلام ! ..

وكان فى المدعوين «دينولان» وابنتاه ، وكان فى ذلك الصباح قدوقع عقد بيع منجمه للشركة دون أن ينتزع من أنيابهـا أكثر من المبلغ اللازم لتسديد ديونه لكنهم احتفظوا به فى المنجم بوصفه مهندسا أجيرا ..

وعندما انتقلوا بعد الاكل الى الصالون لشرب القهوة انتحى السيد « جريجوار » بابن عمه ركنا وهناه على شجاعته فى ذلك القرار :

ـ ماذا تريد ؟ .. ان خطأك الوحيد كان المجازفة بالمليون الذى أخذته ثمنا لحصتك ، فها هو ذا قد ذاب ، بينما مليونى أنا لا يزال يطعمنى دون أن اعمل شيئا كما سيطعم ابناء احفادى ..

ـ ٢٧ ـ

شهد غبش الفجر القطعان الذليلة وهى تسعى نحو المنـاجم فى انكسار ، واخذ «سوفارين» وهو يرقبهم يحصيهم ويعدهم كما يعد الجزار الماشية عند مدخل المجزر ..

وارتعد عندما رأى وسط هذا الخيط الزاحف صاحبه «اتيين» نفسه .. زعيم الاضراب !

تقدم منه وأوقفه وتناوله من كتفه ودفعه بعيدا :

ـ عد ! .. الا تسمع ! .. عد من حيث أقبلت !

لكنه عصاه ، فتركه وتراجع ، وجمد فى العتمة وهو يتبعه ببصره حتى هبط مع الهابطين الى الاعماق السوداء ..

وكان يعرف انهم لن يجدوا فى بطن المنجم عملا ، لانه هو فى تلك الليلة انقض فى جوف الظلام على تلك الاعماق واحدث فيها تخريبا دقيقا ، كى يقتل فى النهاية هذا الوحش الشرير الفاغر الفوهة دائما الذى كم ابتلع من لحم البشر ..

نزل فى ذلك اليوم ثلاثمائة واثنان وعشرون عاملا ، أى ما يقارب نصف عدد عمال ذلك المنجم القدماء كلهم ، وبعد ساعة من نزولهم وقعت الفاجعة ..

انهار بطن البئر وتدافع العمال فى رعب وسط مياه متدفقة كالطوفان وردم يتساقط فوق رءوسهم ، وتقطعت السبل بعدد قليل منهم عرف على الفور هول الكارثة وأدرك أن القفص لن يتمكن الان من النزول فى بئر غمرته المياه .. وعندما أحصى الاسطوات مصابيح العمـال الناجين وجدوا منها مئتين وخمسة وخمسين .. لكن عددا كبيرا من العمال الناجين من الانهيار اعترفوا بأن مصابيحهم سقطت من أيديهم فى لحظات الروع ، فحاولوا أن ينادوا بالاسماء ، لكن بعض الناجين كانوا قد فروا من المكان فى رعب . ولم يتفق أحد على عدد الرفاق الناقصين ..

لعلهم عشرون ، لعلهم أربعون .. لكن كان هنـــاك على أية حال يقين واحد .. هناك زملاء فى أعماق المنجم ، وهذا صراخهم يتـــأدى الى الاسماع واهنا من خلال حشرجات المياه والدعائم المتهاوية ، ينحنى من يريد ان يسمع عند فوهة البئر ..

وتعالى النواح عندما اقبلت جموع النساء ، فظهر لهن « نيجرل» وقال انه سينزل بنفسه فى سلة صغيرة ، ثم تكوم فعلا فى الســـلة المتأرجحة فى طرف السلك وهو ممسك مصباحه بيد وحبل الاشارة باليد الاخرى ، وتحركت البكرة على مهل واختفى المهندس فى البئر الذى لا تزال تتصاعد منه صرخات العمال المحاصرين ..

لم ير شيئا غير مألوف حتى بلغ مسافة ثلاثمائة متر ورأى الكارثة التى أرعدته ، فكل دعامات البئر الخشبية تناثرت واندفع من ورائها رمل أصفر فى نعومة الدقيق وكتل كبيرة ومياه من باطن الارض تتدفق وتعلو ولا سبيل بعد تلك المسافة الى اقتحامها ..

وشد حبل الاشارة عندما رأى جدار البئر على ارتفـــاع مائة متر فوقه وقد بدأ يتشقق ويتحرك ويطلق جداول صغيرة .. هذا شىء . يمكن أن يتم بدون تخريب متعمد ! .. ولن تمض ســـاعات حتى ينتهى البئر وينهار كله ويموت منجم « فورو » ميتته الكبرى ..

وكان المدير فى انتظاره عندما صعد ، فأسر فى أذنه أن الحادث متعمد وقال انه رأى التخريب بنفسه ، فوقف «هينبو» منسحقا من الرعب أمام هذه البسالة المجنونة التى خاطر صاحبها المجهول بحيـــاته .. ترى من يكون ؟

وارتفع صراخ النساء يطلبن اعلان اسماء المفقودين ، على حين كان « سوفارين » يدخن سجائره مستعينا بها على الصبر ، دون أن تفلت عيناه شيئا مما يجرى امامه ..

ثم هزت الارض زلزلة ارتعد لها المنجـــم كله ، ثم زلزلة ثانية من انهيارات داخلية متعاقبة تزمجر أصداؤها زمجرة بركان يتحفز للثوران .. وفى اقل من عشر دقائق كانت قبة البئر تنهار امام الشعب الخاشع المذعور ، ثم توقف الانهيار الباطنى وسكنت الضجة الفظيعة وســـاد سكون عظيم ..

وفجأة تقلصت الارض فى تشنج أخير ابتلع المكنة العملاقة بعد أن

قاومت قليلا وهى تتحطم ، ثم زحفت ، ثم غاصت فى بطن الارض مع مابقى من المبانى ، ولم يبق واقفا فى مكانه غير المدخنة التى يبلغ طولها ثلاثين مترا ، لكنها كانت تترنح مثل صارى سفينة فى اعصار ..

وكانت آلاف العيون التى تتطلع من بعيد الى هذا المشهد الرهيب تتوقع ان تتفتت المدخنة وتتطاير هباء ، فاذا بها تغوص فجأة بطولها كأن الارض شربتها ! ..

لقد انتهى ، انتهى الوحش الشرير الشره وما عاد ينفث لهاثه الضخم المتصل ! . .

ولاذ الناس بالفرار وهم يجأرون بالخوف عنـــدما رأوا فى مكان الوحش الذى اكل حياتهم حفرة كأنها فوهة بركان خامد ، عمقها خمسة عشر مترا وممتدة من الطريق الى القنال بعرض أربعين مترا على الاقل على حين امتد منها لسان فى الارض كالشق حتى بلغ خمارة «راسنير» وصدع واجهتها .. ثم انشقت ضفة القنال فتدفقت المياه فى وثبـــة جعلت من مكان المنجم المخسوف بحيرة موحلة ، كأنها واحدة من تلك البحيرات التى ترقد تحتها مدن ملعونة ..

هنا نهض « سوفارين » من مرصده وابتعد عن المنجم الذى نسفه دون أن يلقى نظرة الى الوراء ، وتضاءل ظله ثم ذاب فى ظل الليل وامتزج به ، ذاهبا الى المجهول ، الى كل مكان يوجـــد به ديناميت للنسف وللاستئصال وللابادة ..

- ٢٨ -

ومن باريس تلقى مدير الشركة الامر بتنظيم جهاز واسع للتجسس، وطرد الرجال الخطرين واحدا بعد واحد ، وبلا ضجة ، أولئك الذين يشتبه فى اشتراكهم فى نسف المنجم ..

اما مهندس الحكومة الخبير فقد قرر بعد تحقيق سريع أن الحادث طبيعى ، فآثرت الشركة أن تسكت وتقبل التأنيب ، واندفع «نيجرل» وجماعة من العمال لانقاذ المدفونين ..

وكانت الفكرة هى محاولة شق طريق من أعماق منجم «ريكيار» المهجور الى اعماق منجم « فورو» التى اطبقت على بعض الزملاء ، لعل هناك أملا اخيرا فى انقاذهم ..

ومر يومان ، وفى اليوم الثالث كانوا قد أتموا عملا متصلا شقوا به نفقا ضيقا بلغ من ضيقه ألا يعمل فيه غير عامل واحد يستبدل به غيره كل ساعتين ، وكان الفحم المستخرج يوضع فى سلال تخرج من يد الى يد فى سلسلة طويلة من الرجال ..

وفى اليوم التاسع كانوا بعد جهود خارقة قد تقدموا اثنين وثلاثين مترا ، فسمعوا يدا تدق بطن الصخر وتعلن أنها هنا حية ! ..

وكل قلب الاقليم كان يخفق هناك ، معهم ، تحت الارض !

وكان « زخارى » أحد عمال خمسة يعملون فى ذلك اليوم فى النفق، فكان يفلق الصخر بجنون وهو يتصور أن أخته «كاترين» لا تزال حية ..

وكان يعمل بلا مصباح لان الاوامر المشددة كانت تقضى بعدم ايقاد المصباح فى أعماق النفق نظرا لتسرب الغازات وتكثفها ، لكنه – فى لهفته – فعلها ، وفى الحال انفجرت صاعقة من النار وخرجت من النفق كما لو كانت خارجة من فوهة مدفع ، والتهب الجو ، ومر هذا الاعصار بالعمال الاربعة وصعد فى البئر وانبثق فى ضوء الشمس قاذفا الصخور والانقاض ..

وبعد ثلاث ساعات من الجهود والمخاطر نزلت جماعة اخرى وكافحت

وصعدت بالضحايا الخمسة .. لم يكونوا موتى لكن حروقا وجروحا فظيعة كانت تغطى أجسامهم التى تفوح منها رائحة لحم مشوى .. كانوا يطلقون انينا متصلا متوسلين الى الآخرين من فرط العذاب ان يريحوهم ويجهزوا عليهم ..

والناس ، النساء والرجال ، كانوا يرتعدون

حتى ظهرت جثة «زخارى» .. كانت أمه صامتة ، اما الآن وهو أمامها فحمة سوداء مبهمة بلا راس فقد فاضت مواجعها .. !

وعندما وضعوا هذه البقايا الرهيبة فوق محفة ، مشت أرملة « ماهوى » وراءها بخطوات آلية وبلا دموع ..

كانت تحمل طفلتها الصغرى بين ذراعيها وشعرها تجلده الرياح، فلما أوصلته الى امراته « فيلومين » تركته لها فى صمت وعادت بنفس الخطوة الى مكان الفاجعة ..

لقد شيعت ابنها ، وهى تعود الآن لتنتظر الابنة ! ..

لكن اياما ثلاثة أخرى مرت ولم يعد الذين عادوا الى النفق يسمعون تلك الدقات الخافتة التى كانت تستحثهم ..

هل ماتوا ؟ ..

هل هم كثيرون ؟ ..

فان كانوا أحياء ما يزالون على قيد الحياة فما حالهم وهذا هو اليوم الثانى عشر منذ دفنوا ؟ ! ..

وكانت الحادثة الجديدة قد ضاعفت فضول البورجوازيين فى « مونتسو » فنظموا رحلة الى « ريكيار » المنكوبة اشتركت فيها « مدام جريجوار » وزوجها وابنتها « سيسل » و « مدام هينبو » وابنتا « دينولان » وأبوهما .. وكان هدف هذه الجماعة أن تعرف من «نيجرل» حالة ممرات المنجم وحكاية المدفونين أحياء ، قبل أن يتعشوا معا فى المساء ..

ومرت الجماعة بالمكان الذى كان يشغله منجم «فورو» فأخرجت «جان دينولان» كراستها ورسمت المنظر ، متحمسة لفظاعة «الموتيف» .. بينما كانت اختها «لوسى» جالسة بالقرب منها فوق حطام عربة وهى تصف المنظر بأنه « هائل » !

اما « سيسل » وامها فقد جاءتا معهما بصدقات لتوزيعها فى مساكن

العمال ، تكملة للرحلة .. اذ كان موت «زخارى» المفجع وهو ينبش بطن الارض بحثا عن اخته قد ملأهما بالشفقة على تلك الاسرة التعسة التى كان البلد كله يتكلم عنها .. ولم يكن عطفهما على الاب « ماهوى » قاتل الجنود الذى وجب قتله كالذئب ، انما هى الام التى مست قلبهما هذه المرأة الشقية التى فقدت ابنها بعد زوجها والتى ربما كانت ابنتها الان جثة تحت الارض .. والجد عاجز على ما يقال ايضا ، وطفل اعرج ، وبنت ماتت من الجوع اثناء الاضراب .. ياله من بؤس !



- ٢٩ -

لم يكن فى بيت « ماهوى » أحد فخرجت امرأة « ليفاك » من البيت المجاور على دق الباب وقالت ان جارتها التى يقصدونها فى «ريكيار» وأن مفتاح البيت معها لانها تعنى بالطفلين « لينور » و « هنرى » فى غياب أمهما ، وان «الجد» موجود فى الداخل ..

وفتحت المرأة الباب ، وما رأوه أوقفهم على العتبة ..

كان الشيخ « الموت الطيب » مسمرا على كرسى وعيناه شاخصتان ، أمام الموقد البارد ، وحوله الصالة العارية الا من صور الامبراطور والامبراطورة - التى كانت شفتاها الورديتان تبتسمان بعطف رسمى - ولم يتحرك الرجل العجوز ، ولم تطرف عيناه فى الضوء الذى نشره الباب المفتوح ، وظل جامدا فى هيئته الغبية ، وعند قدميه طبق ملىء بالرماد كأنه طبق قطة يوضع لها لتلقى فيه بأقذارها ..

وقالت امرأة « ليفاك » مراعاة لخاطر السيدات الانيقات :

- لا تهتموا اذا كان قليل الادب ! ..

لكن انتفاضة هزت الشيخ وشهقة عظيمة صعدت من بطنه ثم بصق فى الطبق بصقة ثقيلة سوداء ، ثم استرد جموده كأن لم ير هؤلاء الذين دخلوا عليه ..

واضطربت الزائرات ومرافقوهن وغثيت الانفس من التقزز ، لكنهم حاولوا مع ذلك ان ينطقوا ببضع كلمات ودية ومشجعة ..

قال الاب السيد « جريجوار » فى تلطف كلفه جهدا كبيرا :

- يا رجلى الطيب ، هل أنت مزكوم ؟ ..

فظلت العينان الشاخصتان الى الجدار فى مكانهما وساد مرة أخرى الصمت الثقيل ..

فأضافت الام « مدام جريجوار » محاولة جديدة يائسة :

- يجب أن يعملوا لك شرابا ساخنا ! ..

فظل « الموت الطيب » محتفظا بجموده الصامت العنيد ..

وغمغمت «سيسل» الابنة المعبودة :

– قل لى يا بابا ! .. انه عاجز ! .. الم يقولوا لنا انه عاجز !..

ووضعت فوق المائدة كرنبا ولحما وزجاجتا نبيذ ، ثم اخرجت من ربطة ثانية حذاء كبيرا كانوا قد جاءوا به هدية للجد ، الذى لن يمشى ابدا ! .. فتلمظت امراة «ليفاك» على الحذاء وتمحكت :

– لن يشكر ! .. كمن يعطى نظارة لبطة ، لا مؤاخذة !

وحاولت – عندما رات كل هذا الرزق – أن تجرهم الى بيتها كى تستدر هناك شفقتهم عليها هى ايضا ، لكن «سيسل» تخلفت وحدها مع «الموت الطيب» .. كانت تحاول ان تتذكر أين قابلت هذا الوجه الشاحب الموشوم بالفحم ، ثم فجاة رات فى ذاكرتها موجا من الشعب الصارخ يحيط بها واحست يدين باردتين تضغطان عنقها .. انه هو!.. وتلقت الاكتشاف برعدة ، وتأملت يديه الملقاتين على ركبتيه ، يدى عامل قوتهما فى المعصمين .. قويتين رغم العمر ..

والشيخ ايضا كان يتيقظ شيئا فشيئا ويفحصها هو الآخر بهيئته البلهاء .. وفجاة صعد لهب الى وجنتيه وتقلص فمه فى حركة عصبية، ذلك الفم الذى كان يسيل منه خيط دقيق من لعاب اسود ..

وظل الاثنان أحدهما ازاء الاخر ، هى مزدهرة وسمينة وطازجة من طول الكسل والرغد ، وهو قعيد منتفخ الساقين بالماء ودميم دمامة شنيعة ، دمامة حيوان مجهد ، حطام وراثة مائة سنة من العمل والجوع ..

وبعد عشر دقائق عاد ابوها وامها مندهشين من تأخرها ، فأطلقا فى الحال صرخات فظيعة عندما وجداها ملقاة على الارض وهى مزرقة الوجه ، مخنوقة .. وكان فى عنقها بصمات حمراء لاصابع عملاق ! ..

والشيخ كان ملقى الى جانبها دون أن يستطيع النهوض على قدميه الميتتين ، وكان ينظر اليهما بهيئته الغبية وعيناه مفتوحتان ، شاخصتان ..

وقد استحالت معرفة وقائع الحادث بدقة .. لماذا اقتربت هى من كرسيه ؟ وكيف استطاع وهو مسمر فى كرسيه ان يأخذ بعنقها ؟

واقتنع الجميع بأن حالة جنون مفاجىء امام عنق البنت الابيض هى

سبب الحادث ، كانه سم حقد صعد من اعماق الرجل الى جمجمته.. انها جريمة ابله بلا وعى !

وركع الاب والام يبكيان تلك المعبودة الصغيرة الميتة ويبكيان معها انهيار حياتهما .. ونظرت امراة «ليفاك» الى الحذاء فخافت عليه ان يسرقه احد من ذلك الجمهور الذى اقبل يتدافع ، ثم انه لم يبق فى بيت «ماهوى» رجل يلبسه ! .. وحملت الحذاء فى خفة ، وبدا لها مطابقا كل المطابقة لقدمى «بوتلو» صديقها !



— ٣٠ —

عندما وقعت الواقعة فى بطن الارض وبدا الانهيار كان معهم خيل محبوسة فى الاسطبل ، فاخذوا يصرخون وأخذت الخيل تصهل ..

وكان هناك الحصان « معركة » فلما رأى نذير الموت انطلق وحده صارخا وغاب فى أعماق أحد الممرات ، فتبعه الرجال وهم يفكرون مثله فى الخروج من بطن الارض عن طريق « ريكيار » اذا كان الممر القديم بين المنجمين لايزال مفتوحا .. وكانوا عشرين ومعهم بعض المصابيح، لكنهم اختلفوا عند مفرق طرق فذهب « شافال » واثنان فى الممر الايمن واستمر الآخرون يجرون وراء الاب « موك » وفى آخرهم « اتيين » الذى تعطله « كاترين » وقد شلها الاعياء والخوف .. ثم حملها رغم مقاومتها ، فسبقهما الاخرون بخمسين مترا ، واذا بالممر ينسد فجأة بكتلة ضخمة منهارة فصلتها عن الاخرين .. وعادا فضلا الطريق وحدهما وانحصر أملهما الوحيد فى الصعود الى طبقات عليا تعصمهما من الماء الطامى ، ولعل نجدة تأتيهما هناك اذا انحسر الماء !.

وكان الماء قد بلغ صدريهما عندما أقبلت عليهما موجة عاصفة مزبدة حاملة عملاقا يصارع المجرى الضيق ليلحق بهما .. انه الحصان « معركة » الذى كان قد ركض فى الممرات السوداء التى يعرف طريقه خلالها فى تلك المدينة السفلى التى سكنها منذ احدى عشرة سنة، وكانت عيناه تريان بوضوح فى أعماق الليل الذى عاش فيه ، فظل يركض ويركض ويختار طريقه الى رؤيا شبابه البعيد ، الى الطاحونة التى ولد فيها على شاطىء النهر ، الى الذكرى الغامضة للشمس المتوقدة فى الفضاء كأنها مصباح كبير ..

كان يريد أن يعيش ، وكانت ذاكرة الحيوان تتيقظ ، والرغبة فى تنفس هواء السهول مرة أخرى كانت تدفعه لاكتشاف مخرج الى السماء الدافئة فى النور .. لن يقتله هذا المنجم بعد أن أعماه !.

وعندما رآياه مقبلا وراءهما كان يتمزق بين الصخور الضائقة بجسمه

الكبير ، وكان قد سقط فانكسرت أماميتاه ، لكنه تقدم بجهد كبير أخير بضعة أمتار ثم انحشر جنباه فظل مقيدا بالارض .. وتطاول رأسه الدامى باحثا عن مخرج ، بعينيه الكبيرتين المضطربتين ، وكان الماء يغطيه بسرعة ، فأخذ يصهل فى أنين متصل فظيع حتى انتهى نزعه المرعب بشهقة أخيرة ساد بعدها سكون عظيم ..

وتقدما بعد ذلك يصعدان وهما يسمعان هدير الانهيارات المستمرة فى الاعماق ويرقبان ارتفاع الماء الخارق فى فزع ..

والبنت خلال هذا الهروب من الموت تكرر بلا توقف ولا تغيير هذه الكلمات :

ـ لا أريد أن أموت ! . لا اريد ان اموت ! ..

ومع مرور الوقت بدأ الجوع يعضهما ، وفقدا الاحساس بالزمن فى قبضة الرعب ..

وعندما بلغا آخر مايسعهما صعودا تأدى اليهما من امامهما ضوء مصباح أذهلهما وصرخ فيهما بحنق صوت رجل :

ـ مغفلون مثلى ..

وكان ذلك « شافال » محصورا أمام ردم وجريح الذراع ، فلما عرفهما ضحك ضحكة سرور سىء :

ـ أهذه أنت يا « كاترين » ! . لقد تبعت رجلك وتخليت عنى عند مفرق الطرق ، فالان نرقصها معا نحن الثلاثة !

والطريق مسدود من أعلى ومن أسفل ، ولا أمل لهؤلاء الثلاثة فى النجاة الا أن يدقوا على الصخور بأيديهم بنداء عمال المناجم عندما يعلنون عن وجودهم فى حالات الخطر ..

وأيام تمر ، والمحبس الضيق قد تسمم بالتنفس وبقذارات الحاجة الطبيعية ، التى كانت تتم أمام بعضهم البعض ..

وكأنما استبطأ الرجلان الموت فاستعجلا أن يذهب أحدهما من الوجود فى الحال ، فاشتبكا بسبب البنت وانتزع « اتيين » حجرا مشطوفا من الجدار وأهوى به على جمجمة « شافال » فسقط على وجهه ورأسه مشقوق ومخه يتناثر على سقف الممر .. ثم جر الجثة وألقى بها الى الماء الصاعد كى ينزعها من الحيز الضيق الذى بقى له هو ليعيش فيه مع تلك البنت التى اندفعت معه فى حمى ارادة الحياة

الفريزية ، فأخذا يحفران فى جدار الممر الفحمى ، هو بخطاف المصباح الخامد وهى باظافرها ..

واستطاعا أن يحفرا فى أعلا الجدار مايشبه مقعدا مرتفعا ،فاعتلياه ودليا ارجلهما وهما منحنيان يجبرهما السقف على خفض راسيهما ، فصار الماء الان لايمس منهما غير الاقدام .. وتتابعت الساعات فى ظلام لايمكنهما من رؤية الموت وهو مقبل !

وفجاة خيل اليهما انهما يسمعان ثلاث دقات ترن فى أصلاب الفحم، بعيدة ، ضعيفة ..

وردا الاشارة فى جنون ، وتسمعا بان الصق كل منهما اذنيه بالجدار ، فميزا من جديد ثلاث دقات بعيدة وضعيفة ..

انها النجاة ! .

وتكرر الدق من هنا وهناك ، فبكيا وهما يتبادلان القبلات .. هؤلاء هم الرفاق قد جاءوا ! . انهم فى الطريق ، قادمين من «ريكيار» .. يالها من مسافة ! . كم يوما اخذوها فى شق تلك المسافة فى قلب كتلة الفحم الصلبة ؟ .. لا ! لن يصلوا فى الوقت المناسب ! . واستبد بهما دوار الجوع وعذاب العنق الملتوى تحت السقف الخفيض ، وأكلا قطع الخشب المتعفنة ، ومن وقت الى اخر كانا ينحنيان فيشربان من الماء الذى تجاوز الركب ، فى راحة اليد ..

وفى اليوم السابع كانت هى منحنية لتشرب عندما صدم يدها جسم عائم امامها ، فتحسسه هو بيده دون أن يعرف حقيقته ، لكنها اطلقت فجاة صرخة فظيعة :

ــ انه هو ! . هو ؟ . لقد لمست شاربه ! .

كانت جثة « شافال » هى التى هناك ، فبصقت « كاترين » الماء من فمها فى غثيان ، كانه دم ، كأن كل هذا الماء الذى امامها فى الظلام دم هذا الرجل ..

وركل هو الجثة فابتعدت ؟ .

لكنهما لم يلبثا أن احسا بها تصطدم بسيقانهما مرة اخرى .. ثم مرة ثالثة .. فاضطرا ان يتركاه .. لم يكن يريد أن يذهب ! . كان يريد ان يبقى معهما ! .

وفى اليوم التالى كانا يزيحان الجثة قليلا قبل أن .. يشربا !

كم هو عنيد فى غيرته ! .

سيكون هنا حتى النهاية ، حتى وهو ميت ، كى يفرق بينهما ! .

ويوم اخر ، ويوم اخر ، ودنت أصوات الرفاق القادمين فى قلب الصخر وعلت دقاتهم ، وتلك الجثة الملتصقة بهما لابد انها الان منتفخة ومتعفنة ومخضرة .. لكنهما كانا فى شبه غيبوبة واضعف من أن يردا على الرفاق لكى يهتدوا الى مكانهما ..

لم يعد فى ضعفه يهمه ان ياتوا أولا ياتوا ، وكان فى حالة من البلة نسى معها الفرج القريب ..

وضمته فضمها وهما على تلك الحال من فقدان الاحساس السليم بالواقع ، وكانت ليلة زفافهما فى هذه الغمرة من اليأس الاخير ، فى هذا القبر ، على فراش الوحل هذا ؟ ..

وماتت فظلت فى حجره يومين !! .

ثم سمع اصواتا وتدحرجت عند قدميه صخور ورأى مصباحا ، فبكى .. لقد اقبلوا متاخرين ؟

وحملوه وسقوه ملاعق من حساء ، ومرت مدة قبل أن يعرف من بين منقذيه بعض الوجوه الغارقة فى حزن واسع ، فى بؤس الاجيال ، اقصى ماتسقط فيه الحياة من الم !

وفى نور الشمس تهاوت امراة « ماهوى » فوق جثة ابنتها وبثت الكون شكاواها ، على حين كانت جثث عديدة مصطفة على الارض ، والنساء حولها مجنونات يمزقن اثوابهن ويخدشن وجوههن ..

وعندما أخرجوه آخر الامر بعد أن عودوه على النور وغذوه قليلا ظهر « اتيين » للناس شبحا ناحلا ابيض الشعر ، فكان الناس يتنحون عن طريقه فى شيء من الاكبار والروع

وعندما بدا يمشى على الارض مرة اخرى خيل اليه انه يسمع تحت قدميه ضربات معاول الفحامين فى بطن الارض ، عميقة ، عنيدة ، دائبة .. كلهم هنا تحت القمح وتحت الشجيرات وتحت البنجر وفى كل مكان .. لم يموتوا أبدا ، وهذه شمس ابريل فى قلب السماء تشع فى مجدها، باعثة الحرارة فى ارض تلد بلا توقف .. ومن البطن المغذى كانت تنبثق الحياة وتتفتح البراعم عن ثمار وأوراق خضراء ، وتنتفض الحقول بعملية الانبات والنمو ، ومن كل مكان كانت تتفتح بذور

وتتمدد وتشق التربة طالعة للدفء والنور .. وصوت ضربات المعاول
فى الاعماق السوداء كان يزداد فى كل خطوة وضوحا وعلوا ، كما لو
كان الضاربون يقتربون من سطح الارض ، وفى أشعة الشمس المشرقة
كان السهل كله مليئا بهذا الهدير وحده ، فى صباح الشباب هذا ،
وكان رجال جدد ينبتون على مهل لحصاد القرن المقبل ..

انتهت



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى



المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الآداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر « زولا » من أشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١

هذه الرواية

يعتبر الكثيرون من النقاد رواية « جرمينال » قمة أعمال الروائى العالمى « اميل زولا » .. فلأول مرة فى تاريخ الادب – ومن تصوير كاتب جمهورى لا اشتراكى ، فقد كان « زولا » فى صميمه جمهوريا معتدلا – تصدر قصة ليس البطل فيها فردا أو أفرادا وانما بطل جماعى هو جمهور عمال منجم ليصور المؤلف – بقلمه الذى لا يجارى – الظلم الواقع عليهم وعلى أمثالهم من طبقة العاملين ، وليسم بالحديد المحمى مجتمعه الذى يسمح بمثل هذا الظلم ، مما يجعل ((جرمينال)) عملا فريدا فى الادب الفرنسى كما أنه فريد فى انتاج « زولا » نفسه ..

